هيرمان هسّه

فنّ الكسل



ترجمها عن الألمانية: أحمد الزناتي

الكتاب: فنّ الكسل

المؤلف: هيرمان هسّه

ترجمة: أحمد الزناتي

تصميم الغلاف: إسراء النجّار

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 142

الترقيم الدولي: 978-1-998800-05-6

الطبعة الأولى: 2022

منشورات حيـــاة

الموقع الإلكتروني Hayatph.com

بريد إلكتروني info@hayatph.com

فنّ الكسل

نصوص نثرية

هيرمان هسّه

ترجمها عن الألمانية

أحمد الزناتي



بقلم هيرمان هسّه[1]

في اعتقادي لا تُمثّل نصوص هذا الكتاب التي تتوسّل -عن نيّةٍ وقصد- بشكل المقالات الأدبية والشذرات الخفيفة إلا نزرًا يسيرًا من مُجمل أعمالي، هذا من ناحية، من ناحيةٍ ثانية ثمة رابط مشترك ينظم في خيطٍ واحد النصوص البسيطة المشوبة بنبرةٍ تهكمية ساخرة في أغلب الأوقات. هذا الرابط أسمّيه محاربة التفاؤل المخادع الذي يسيطر على الرأي العام عندنا، أسمّيه محاربة التقاليع الأمريكية والأوروبية التي ابتكرها الإنسان العصري ووصل بها إلى الحدود القصوى من السفور، وأسمّيه الشعور الصبياني المؤذي المتمثِّل في شعور إنسان اليوم بالرضا التام عن نفسه، بينما هو غارق حتى أذنيه في الرعونة، والغطرسة، والافتقار إلى التواضع والتحلّي بروح التشكّك فيما يراه حوله، علاوةً على افتقاره إلى التحلّي بروح المسؤولية.

(1) خلَّف هيرمان هسّه تركة أدبية هائلة من النصوص النثرية والتأملات والمقالات والشذرات الأدبية التي كانت تُنشر متفرّقة على صفحات الجرائد والمجلات في سويسرا على مدار ستة عقود، وكانت جميعها تحمل طابع السيرة الذاتية والتأملات. الذكريات الشخصية جمعها الناشرون في كتب متفرقة، نقّدم في هذا العمل طائفة مختارة منها (المترجم).

إن قيمة أعمالي لا تساوي إلا قيمة المتعة التي أجنيها من وراء عملية الكتابة. إن ما يُحدِث أثرًا حقيقيًا فيِ روح الكاتب ويبقى داخلها لا يكمُن فيما يَودُّ كتابته، ولا ما يفكر فيه، ولا ما يرسمه بقلمه، وإنما في اللمحة السريعة، في الفكرة، في السحر البسيط العابر. تمامًا كما هو الحال في موسيقى "موتسارت"، فليس بيت القصيد هو الحكاية المروية أو العبرة الأخلاقية، وإنما اللمحة الطيّارة واللحن العذب، الحيوية والرشاقة التي تتطوّر بها الثيمات الموسيقية، وتنتقل من حالٍ إلى حال. والحقيقة أنني أُفضِّلُ رجلًا يؤثر تكريس حياته لأكثر المبادئ والمُثل في الدنيا سذاجةً وبراءةً عن رجلٍ يدّعي امتلاك القدرة على الحديث عن جميع الأفكار والمثل، لكنه يعجز عن تقديم أدنى قدرٍ من التضحية لأجل الدفاع عن أيٍّ من الأفكار التي يتشدّق بها.

هيرمان هسّه (1932)

عن متعة العناد

في الطريق نحو تطوّر كل فردٍ وتحقّق ذاته لا بديل عن سلوكِ طريقٍ واحد بعينها، وهذه الطريق هي إبراز الوجود الفردي للذات في أكمل صورة ممكنة.

"كن نفسَكَ" هو القانون الأمثل، على الأقل لو تكلمنا عن الشباب، ولا بديل عن هذه الطريق للوصول إلى الحقيقة وإلى التطوّر الفردي. فإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن هذه الطريق محفوفة بعديدٍ من العقبات الأخلاقية وغير الأخلاقية، وأن العالَم يُفضّل أن يرانا متكيّفين وفق إرادته وضعفاء أمام مشيئته بدلًا من أن يرانا معاندين أقوياء، لَفَهِمْنا سبب نشوء صراع الحياة الذي يكون أصعب عند الإنسان الذي ينشد التفرّد من الإنسان المتوسط العادي.

ومن هنا يتحتم على كل فردٍ وفق قدراته واحتياجاته أن يحسم قراره ما إذا كان يرغب في الرضوخ إلى عادات الحياة وتقاليدها أو ما إذا كان سيتصدّى لها بشجاعةٍ وقوة. ولو قرّر المرء أن يضرب بالأعراف السائدة ومطالب العائلة والدولة والمجتمع عُرض الحائط، فعليه أن يفعل ذلك واعيًا لحقيقة أن طريقه محفوفة بالمخاطر، وواضعًا في حسبانه غياب مقياس موضوعي يُقيّم من خلاله درجة المخاطرة التي سيقدر على تحمّلها.

على كل فرد أن يدفع ثمن كل مشقة يتكبدها وكل تجاوز لمعياره الذاتي، كما أن عليه ألا يسرف في موائمة متطلبات المجتمع ولا في العناد المفرط ضدّها.

لا ينبغي لكَ أن تسأل: "هل طريقتي في الحياة صحيحة؟ وهل موقفي إزاء الحياة سليم؟" لأنه ما من إجابة واحدةٍ عن سؤالكَ، فكل طريق في الحياة صحيحة مثلها مثل غيرها، لأن كل طريق تسلكها هي جزء من تيار الحياة.

الأحرى بكَ أن تسأل نفسكَ:" بما أنني الفرد الذي عليه الآن، وبما أني أطوي بين جوانحي كل هذه المشكلات والاحتياجات، ما الذي ينبغي لي فعله لكي أمضي قدمًا في هذه الحياة وأن أظفر منها بشيءٍ جميل قدر الإمكان؟".

عندها سيكون في مقدوري أن أهمس في أذنك بالجواب التالي، ولكن شريطة أن ترهف السمع إلى صوت أعماقكَ:

"بما أنكَ عاجز عن تغيير نفسك، فلا ينبغي لك أن تحسد الآخرين على ما هم فيه، ولا أن تُحقّر من شأنهم، ولا أن تسأل عن استقامة طريق حياتك، بل عليكَ أن تتقبّلَ نفسكَ ورغباتك مثلما تتقبّل جسدكَ واسمك وأصلكَ وفصلك... إلخ، باعتبارها (أي نفسكَ) قدرًا محتومًا لا مفرّ منه. يتحتم أن تقول لها: "نعم"، وأن تتحمّل مسؤوليتك عن نفسك، حتى لو وقف العالم كله ضدّها.

هذا مبلغ علمي، وأنا لا أعرف حِكمة في مقدورها أن تُسهّل عليك مواصلة الحياة. ليست الحياة سهلة المراس، إطلاقًا، ولكن علينا ألا نسأل إن كانت الحياة سهلة أم صعبة.

أمامنا خياران لا ثالث لهما: إما أن نيأس من الحياة، وهذا متروك لاختيار كل فرد، وإما أن نسلك سلوك الصالحين ذوي القلب السليم -على الأقل ظاهريًا- الذين يبدون أمامنا أنهم لا يعانون من مشكلات روحية، بمعنى أن نقبل نفوسنا على علّاتها، وألا ننكر عليها حقوقها ونوازعها.

صديقي.. ها أنا ذا أسدي النصائح، لكني لا أومن في حقيقة الأمر بقدرتها على صنع المستحيل، وعليك أن تأخذ بهذه النصائح بقدر ما تسمح به طبيعتكَ، لا أكثر ولا أقل. إننا عاجزون عن تغيير طباعنا، لكنا نصير أقوى كلما اعترفنا بالحياة، وكلما صار ما في داخلنا منسجمًا مع ما يجري لنا من الخارج.

ومثلما صوّر الكتاب المقدس "المعرفة"، أو لنسمِّها يقظة الروح، على أنها خطيئة (مُمَثّلة في الحيّة التي ظهرت لآدم في جنة عدن)، فإن عملية التفرّد[1] وصراع الفرد وسط الحشود لبناء شخصيته المستقلة في مواجهة العادات والتقاليد الموروثة، تُقابل بنظرة ريبة وشك، رغم أن كل اصطدام بين الشاب وأسرته، وبين

---

(1) هذا مصطلح استلهَمه هسّه من عالم النفس السويسري الكبير كارل غوستاف يونغ، وفي الأصل Individualisierung، وهو من المفاهيم الأساسية عند يونغ التي أسهم بها في وضع نظريات تطور الشخصية، ويُقصد بالمصطلح أن يصبح المرء ذاته، وألا يتأثر بغيره ولا يقلّدهم، بمعنى اكتمال خصائصه النفسية وتكاملها وعدم انشطار أي جزء منها، وتميزه عن غيره من الناس بشرط الإبقاء على علاقته بهم، والمقصود أن يصبح الشخص واعيًا بالجوانب التي تميزه باعتباره إنسانًا مفردًا، وأن يعي في الوقت ذاته أنه يزيد عن كونه رجلًا عاديًا أو امرأة عادية (المترجم، نقلًا عن علم النفس التحليلي عند كارل جوستاف يونغ، محمد عناني، دار رؤية 2019).

الابن وأبيه هو شيء طبيعي وموغل في القدم، إلا أن الأب يرى هذا الاصطدام لونًا من ألوان التمرّد الشائن.

ومن ثم يبدو لي أن قايين (قابيل)، أي أول خارج على القانون وأول قاتل في التاريخ، ليس إلا صورة مشوّهة تقابل صورة البطل الأسطوري "بروميثيوس" كممثل للروح والحرية؛ البطل الذي عوقِبَ بالنبذ والطَرد بسبب فضوله وشجاعته. الحقيقة أني لا أعير انتباهًا لمدى اتفاق علماء اللاهوت مع أطروحتي السابقة ولا أهتم بمعرفة كيف سيفهمها أو يسوّغها كاتبي أسفار موسى المجهولين، فحكايات الكتاب المقدس، مثلها مثل كل أساطير التراث الإنساني لا تكتسب قيمتها الحقيقية إلا لو جرؤنا على تأويلها تأويلًا شخصيًا يتلاءم مع عصرنا. عندها تكتسب هذه الحكايات أهمية قصوى في أعيننا.

(من دون تاريخ)

عن فن الكسل

"لو لم أكن شخصًا مجتهدًا من أعماقي، كيف كان سيخطر ببالي تدبيج أناشيد المديح وابتكار النظريات عن فن الكسل؟ فالكسول العبقري بالفطرة لا يقدر على كتابة مثل هذه الأفكار".

هيرمان هسّه

كلما استُلِبَ النشاط الفكري الحرّ وحُشِرَ داخل ماكينة الفكر التقليدي الخالية من الروح، وكلما حاولت العلوم الحديثة والنظام التعليمي سرقة حريتنا وشخصيتنا الفردية المستقلة، وانتزاعنا من حالة الطفولة لأجل أن تقذف بنا في أتون إيقاع العصر اللاهث المحموم باعتباره الحالة المثلى للإنسان العصري؛ انهار فن الكسل وتوارى جنبًا إلى جنبٍ مع غيره من الفنون القديمة الأخرى التي هجرها البشر، وكأننا لم نكن سادة هذا الفن وأساتذته من قرونٍ طويلة. طالما كان فن الكسل في الحضارة الغربية في الأوقات كلها فنًا لا يمارسه إلا الهُواة المسالمون.

أغرب ما في الأمر أن في عصرنا الراهن، وفي الحين الذي تتجه فيه أبصار كثير من الغربيين بمزيدٍ من مشاعر الفضول والشوق إلى عالم الشرق لالتماس شيءٍ من مشاعر البهجة التي تفوح بها أجواء

"شيراز" و"بغداد"، والتماس شيء من الحضارة الهندية وتقاليدها العريقة، واستلهام شيء من الجدِّية والعمق الذي يزخر به عالم البوذا؛ قلما نرى إنسانًا حاول القبض على شيء من هذا السحر واستشعار شيء من برودة الآبار الأندلسية التي نحسُّ بها تتدفَّق نحونا ونحن نقرأ كتب القصص الشرقية.

السؤال الآن: لماذا يشعر كثير منا بفرحةٍ غامرة عند قراءة كتب القصص هاتِه؟ أقصد الليالي العربية (ألف ليلة وليلة)، والحكايات الشعبية التركية وكتاب الببغاء[1]، وهو "ديكاميرون" الآداب الشرقية.

وما السرّ الذي دفع شاعرًا شابًا مرهفًا أصيل الموهبة مثل "باول إرنست"[2] لأن يسلك في روايته "أميرة الشرق" هذه المسارات الكلاسيكية القديمة؟ ولماذا كان "أوسكار وايلد" حريصًا أشدّ الحرص على اللجوء بخياله إلى هذه العوالم الشرقية؟

الحقيقة لو أننا توخّينا الدّقة والنزاهة وتجاهلنا آراء عدد من المستشرقين، لتحتم علينا الاعتراف بأن مجلدات ألف ليلة وليلة لا توازي حكاية واحدة من حكايات "الأخوين جريم"، ولا تضاهي أسطورة واحدة من الأساطير المسيحية المنحدرة من القرون الوسطى. إلا أننا على الرغم من ذلك نُقبل على قراءة الليالي بسعادةٍ بالغة،

---

(1) المقصود كتاب حكايات الببغاء السبعون (شوكا سابتاتي) أو ألف ليلة وليلة الهندية، وللكتاب ترجمة عربية أنجزها د. منذر الحايك (المترجم).

(2) باول إرنست (1866-1933) شاعر ومسرحي ألماني كان من رواد الحركة الطبيعية والكلاسيكية الجديدة في الأدب الألماني (المترجم).

وسرعان ما ننساها لأن كل قصة لا تختلف عن شقيقتها في شيء، لكننا نعاود قراءتها بمزيدٍ من الإعجاب والانبهار مرات ومرات بالسعادة نفسها التي قرأناها بها أول مرة.

ولكن، كيف حدث ذلك؟

يحلو للمرء أن يعزو هذا الإعجاب إلى عذوبة السرد الشرقي، إلا أننا بذلك نبالغ في تقدير أحكامنا الجمالية، فلو كانت المواهب السردية في أدبنا الغربي أصيلة حقًّا لكنها لا تحظى بالتقدير اللائق بها، فلماذا نلهث إذًا وراء الأصوات القصصية في عالم الشرق؟

ليست المسألة إذًا في المتعة الفنية التي نتذوقها ونحن نقرأ فنون السرد الشرقي، أو إن صحّ القول ليست المتعة الفنية هي السبب الوحيد، لأننا لا نملك الحسّ الكافي لتذوق الروح الشرقية. واقع الأمر أننا بينما نقرأ هذه القصص الشرقية، إنما نفتش عن المحفزات النفسية والعاطفية داخل النص السردي، جنبًا إلى جنب مع المضمون المادي الملموس.

حقيقة الأمر أن السحر الذي يوقعنا في حبائل الآداب الشرقية راجع بالأساس إلى روح الخمول المحبّبة لديهم، بمعنى روح الكسل التي تطوّرت وتحولت إلى فن قائم بذاته له طعم وذوق.

فالحكّاء العربي مثلًا في ذروة لحظات التشويق والإثارة في أثناء سرد القصة، يمنح لنفسه فسحة من الوقت ليستغرق في وصف تفاصيل بالغة الدقة لخيمة ملكية أرجوانية، أو بِطانة سِرج موشّاة بالأحجار الكريمة، أو في سرد فضائل درويش من الدراويش أو مآثر حكيم من الحكماء سردًا مسهبًا لا يغادر شيئًا من أكثر التفاصيل دقّة.

حتى أنه قبل أن يسمح للأمير أو الأميرة بقول كلمة واحدة، ينبري فيصف لنا سطرًا بسطر، خطوطَ ومنحنيات الشفاه، ويصف لنا شكل ولمعان أسنان الأبطال البيضاء الجميلة، أو يصف فتنة النظرة الجريئة أو النظرة الطافحة بالخزي، أو إيماءة اليد الناعمة ناصعة البياض، التي تتنافس معها في الجمال أظافر الأصابع الوردية البرّاقة المتألقة بالخواتم المرصعة بالجواهر.

يقصُّ الراوي كل هذه التفاصيل ولا يقاطعه المستمع البتة، لأن مستمعه لا يعرف نفاد الصبر ولا شهوة الكلام، فتراه ينصتُ إلى الراوي إذ يتكلم عن مناقب زاهد متصوّف طاعن في السنّ بنفس درجة الحماسة والسرور التي ينصتُ بها إلى قصةِ حبٍ ملتهبة لشابٍ حديث السن، أو قصة انتحار وزير حلَّ عليه سخط السلطان.

الحقيقة أننا بينما نقرأ هذه الحكايات لا يفارقنا شعور بالاشتياق إلى عوالمهم ويحسدهم أيضًا! لأنهم يمتلكون هذا الكمّ الوافر من الوقت! وقت بلا انتهاء. في مقدورهم أن ينفقوا آناء الليل وأطراف النهار في ابتكار حكاية جديدة عن طهارة فاعل الخير ودناءة فاعل الشرّ. وعند الظهيرة عندما يصل الراوي إلى منتصف الحكاية التي كان قد بدأها في الليلة الفائتة، يضطجع المستمع، ثم ينهض لأداء الصلاة، ويخلد إلى النوم وهو يسبح بحمد الله، فغدًا يوم جديد تتواصل فيه الحكاية.

هؤلاء الرواة العرب هم "مليونيرات الوقت"، يغترفون الزمن من بئرٍ عميقة ما لها من قرار، ولا يولون اهتمامًا لانقضاء ساعة أو يوم أو حتى أسبوع كامل في سرد حكاية. نحن أيضًا بينما نقرأ تلك

الحكايات الخرافية والقصص العجيبة المتشابكة الممتدة بلا نهاية، نكتشف أننا رُزقنا صبرًا عجيبًا ورغبةً عارمة في استمرار الحكاية بلا انتهاء، لأن هذا السحر العظيم قد خلَبَ ألبابنا، ولأن ربّة الكسل قد مسّتنا بعصاها السحرية العجيبة.

أما بالنسبة إلى كثيرٍ من البشر الذين يجلّون عن الحصر، أقصد أولئك المؤمنين الذين نال منهم التعب، فخرجوا في رحلة حج إلى مهد الإنسانية والحضارة، واستقرَّ بهم المقام عند قدمي "كونفوشيوس" العظيم و"لاو-تسي"، فهؤلاء الذين استبدَّ بهم الشوق إلى فنّ الكسل المقدّس.

وماذا نقول عن سحر الإله"باخوس" المُخـفِّف للأحزان والكآبة، وعن لذّة الحشيش المخدِّرة على ذلك الهارب البائس الجالس على حافة الجبل؛ يراقب دورة ظلّه، ويرى روحه المصغية إلى السكون المطبق، متأملًا طلوع الشمس وأفول القمر؟

أما في عالمنا، عالم الحضارة الغربية المقفرة، فقد مزّقْنـا الوقتَ إلى أجزاءٍ صغيرة، مزقناه إلى شظايا متناهية الصِغر، لا تزيد قيمة الواحدة منها عن قيمة عملة معدنية صغيرة، إلا أن الوقت ما يزال يمضي منهمرًا بلا انقطاع في شكل موجة متدفقة بثبات تكفي لريّ ظمأ العالم، مثلها مثل ملح البحور ونور النجوم.

وحاشاني أن أسدي النصح إلى ماكينة صناعة الفكر التقليدي، وإلى دولاب العلوم الحديثة التي تلتهم الشخصية الفردية للإنسان اليوم التهامًا. ولو كانت الصناعة والعلوم الحديثة لا تريد إفساح مجال إلى نموّ وتفتح الشخصية الفردية، فمعنى هذا أنها أيضًا بلا شخصية.

رغم ذلك أقول: يتحتم علينا نحن معشر الفنانين، الواقفين وسط إفلاس حضاري هائل، الساكنين فوق جزيرة توفّر لنا حدًا معقولًا من الظروف المعيشية المقبولة، أقول يتحتّم علينا أن نحيا وَفق قوانين مغايرة للقوانين السائدة. فالشخصية الفردية المستقلة بالنسبة لنا ليست رفاهيةً ولا ترفًا، بل هي شرط الوجود الإنساني برمته، هي الهواء الذي نتنفّسه، ورأس المال الذي لا نقوى على العيش دونه.

وأُدرِجُ تحت مسمّى "الفنانين" كل مَنْ يرون في الشعور بالحياة وفي تطوير أنفسهم حاجة ماسّة وضرورة لا غنى عنها، وكل من يتنبهون بوعيّ إلى طاقاتهم الباطنية ويستغلونها وفقًا لقوانينهم الفطرية، وأقصد بكلامي كل من لا يمارسون نشاطًا حياتيًا ثانويًا لا يكون أساس وجوده أو ممارسته منسجمًا مع أساس وجودهم الأصيل، كمثل القوس بالنسبة إلى الجدار، أو كالعمود بالنسبة إلى السقف في أية بناية مشيّدة تشييدًا جيدًا.

طالما احتاج الفنانون إلى شيءٍ من الكسل؛ يعود جزء من ذلك إلى حاجتهم إلى فهم التجارب التي اكتسبوها حديثًا وتمثّلها، وإعطاء الفرصة للأفكار التي أفرزها اللاوعي لكي تنضج، بينما يعود جزء آخر إلى تكريس الفنانين أنفسهم تكريسًا لاواعيًا لفكرة أن يعودوا أطفالًا مرةً أخرى[1]، أن يكونوا أصدقاءَ وأشقاءَ الأرض والنباتات والصخور والسُحب.

---

(1) لا يمَل هسّه من التأكيد على فكرة "عودة الإنسان ليكون طفلًا"، وهي فكرة متكررة في أغلب أعماله الروائية، ولا سيما في "رواية كلاين وفاجنر"، فعودة الفنان طفلًا هي الخلَاص عنده، عملًا بالآية المستمدة من الكتاب المقدس:""اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ متى:3:18 (المترجم).

وسيّان إن كنتَ ترسم لوحاتٍ أو تصوغ قصائد، أو إن كنتَ تكتب الأدب أو تقرض الشعر ابتغاء المتعة الفنية وحدها، فلا بُدَّ من وجود فترات من الراحة التي لا غنى عنها لأي فنان.

يقفُ الرسّام أمام لوحة لم يرسم فيها سوى الخطوط الأولى، لكنه لا يشعر في نفسه رباطة الجأش ولا القوة الداخلية اللازمة لبدء للعمل، لكنه يشرع في المحاولة، يخامره الشكّ في أصالة ما يرسم، يضرب بفرشاته على اللوحة، ثم ما يلبث أن يطيح بكل شيءٍ غاضبًا أو حزينًا، ويستولي عليه شعور بالعجز وأنه ليس أهلًا لهذه المهمة الطموحة، فيلعن اليوم الذي أصبح فيه رسامًا، ويغلق باب الورشة، ويحسد كل كنّاس يراه في الشارع على هدوء أوقاته وراحة ضميره.

والكاتب يغزوه الشكّ عند الشروع في تأليف عمل جديد، وسرعان ما يفقد شعور العظمة الذي استولى عليه في البداية، فيشطب الكلمات، ويمزق الصفحات، ويعيد كتابتها، لكنه ما يلبث أن يلقي بكل شيءٍ في النار، فتستحيل الأفكار التي كان يراها في البداية متماسكة واضحة، إلى شيءٍ مرتبك شاحب بلا قوام، وإذ به يشعر أن عواطفه ومشاعره الصادقة قد استحالت بغتة إلى مشاعر تافهة، مزيّفة، عارضة، فيهرُب من كل شيء، ويحسد عامل النظافة على هدوء باله، وهكذا هلّم جرا. إن ثلث أو ربما نصف حياة المُبدعين تمضي على هذا النحو، اللهم إلا استثناءات نادرة متصلة بِمنْ أوتوا القدرة على مواصلة العمل بنشاطٍ متدفق بلا انقطاع.

من قلب فترات الحُبسة هاته تنشأ أوقات الخمول الاضطرارية، التي طالما قوبِلَت بالازدراء أو الشفقة من ذوي الروح "البانوسية"، من محدودي الأفق[1].

ومثلما يعجز محدود الأفق عن استيعاب كيف أن ساعة واحدة من النشاط الإبداعي تنطوي بداخلها على عملٍ هائل شديد الثراء والتنوع، سيعجز بالمثل عن إدراك سبب وقوف الرسّام أمام اللوحة مرتبكًا عاجزًا عن مواصلة الرسم، ولماذا لا يواصل ضربات الفرشاة واحدة تلو الأخرى وإنهاء لوحته في هدوء، ولماذا يصاب بالعجز عن مباشرة الرَسم، فيستسلم غارقًا في التفكير، مغلقًا حجرة الرسم لمدة أيام أو أسابيع.

بل حتى الفنان نفسه دائمًا ما يُباغَتْ ويُخدع بأوقات الحُبسة هاته، ويسقط فريسة ضيق الصدر وتعذيب الذات، ويستمرّ به الحال هكذا حتى يتعلّم كيف يُذعن لصوت قوانينه الفطرية الداخلية، وحتى تواسيه فكرة أن الوفرة تشلُّ الإبداع مثلما يشلّه الإرهاق.

وأما تفسير الحُبسة عندي فهو أنَّ نفس المُبدع تموج بشيءٍ نشِط، يرغبُ في أن يصنع منه (المبدعُ) عملًا فنيًا مرئيًا جميلًا، إلا أن البذرة نفسها تأبى على التفتُّح لأن وقت نضوجها لم يحن بعد، ولأن

(1) ورد في الأصل Banausen، وهي مفردة ذات أصول إغريقية، تدلُّ على العقلية النفعية البحتة، ضيّقة الأفق، العاجزة عن التفكير أو الحكم على شيء بمعزل عن الفائدة المادية المباشرة (المترجم نقلًا عن شروح د. محمد شوقي الزين، الثقاف في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات ضفاف 2013، صفحة 604).

البذرة ما تزال تحمل حلَّ معضلة الحُبسة الوحيد باعتبارها سرًا لم يأن وقت الكشف عنه، وهكذا لا يكون أمام المبدع سوى الانتظار.

أمام المُبدع مئات الطرق الممتازة لتزجية أوقاته أثناء الانتظار، أهمَها مواصلة التعرُّف على أعمال الأسلاف والمبدعين المعاصرين ذوي المواهب الحقيقية. ولكن دعني أقول لك شيئًا: لو كنتَ أمام معضلة درامية مؤرّقة تُمثّل شوكة في جنبكَ، فمن غير الملائم قراءة شكسبير، ولو مُنيت بالفشل في رسم الخطوط الأولى لصورةٍ ما وصرتَ يائسًا بائسًا، فمن غير المحبَّذ تأمّل أعمال الفنان الإيطالي "تيتيان".

وهناك فئة من الشباب التي تتخذ بورتريه "الفنان المفكِّر"[1] مثلًا أعلى، تذهب إلى أن الطريقة المثلى لاستغلال الوقت الضائع هو الاستغراق في التفكير والانغماس في اجترار التأملات المتشككة والاستطرادات الخيالية الغريبة من دون هدف ولا غاية. وهناك فئة ثانية ممن لم ينضموا إلى الحرب المقدّسة ضد الكحول، وهي الموضة التي صارت ناجحة بين الفنانين اليوم، فيؤثرون الذهاب إلى الأماكن التي تُقدم نبيذًا جيدًا، وتلك الفئة لها مِني الدعم الكامل غير المشروط، لأنني أعُدُّ النبيذ الجيّد بوصفه وسيلة متوازنة، مواسية، جابرة للخواطر، ومانحة للأحلام، ربّة إلهام أجمل مما يريدنا أعداء النبيذ أن نظنّه مؤخرًا.

(1) الإشارة هنا إلى بورتريه "الفنان المتأمّل" Der denkende Künstler للفنان التشكيلي الألماني، المولود في سويسرا "باول كلي" (المترجم).

ولكن ليس في مقدور كل واحدٍ الاستمتاع بالنبيذ الجيّد، فكيما تحبّه وتستمتع به استمتاع الفنان الحكيم، وكيما تفهم لغته الجذابة بكل ما تحمله من رقّة، يتحتم عليك أن تكون موهوبًا بالفطرة في تذوّق سائر الفنون الأخرى، لأنك من دون تدريب ولا اتباع تقاليد محترمة في طريقة شرب النبيذ، فلن يصل بكَ إلى شيء.

السؤال الآن: كيف يلتمس الفنان خطواته بنفسٍ مطمئنة وهِمّة، بينما يمضي بين طريقين محفوفين بالخطر: وقتَ التفكير في أوان نضوجه الخالي من الحماسة، ووقت التفكير والفراغ الباعث على الإحباط؟

إن أنشطة التواصل الاجتماعي، وممارسة الرياضة، السفر، وغيرها هي ألوان من التسلية لا تُجدي نفعًا في مثل هذه الأوقات، لأنها تسلية لائقة بالأثرياء، ولا ترقى أبدًا لطموح الفنان. كما أن الفنون القريبة تخذل بعضها البعض في مثل هذه الأوقات العصيبة، فالشاعر الذي يعاني لإنهاء قصيدة لا يجد راحته ولا اتزانه النفسي عند صديقه الرسّام، وبالمثل لا يجد الرسّام عزاءه وسلوانه عند المؤلف الموسيقي وهكذا.

إن الفنان لا يقدر على الاستمتاع بالفن استمتاعًا عميقًا وكاملًا إلا في أوقات إبداعه الرائقة، أما في أوقات معاناته فتبدو شتّى ألوان الفنون في عينيه إما مبتذلة باهتة الملامح، وإما ضاغطةً خانقةً لروحِه. فبالنسبة إلى فنان مُبتلى بالإحباط والعجز يمكن لساعة من موسيقى "بيتهوفن" أن تقلب أحواله رأسًا على عقب مثلما يمكنها أن تشفيه من سقمه. وهذه تحديدًا هي النقطة التي أفتقد فيها بشدّة فن

الكسل، ذلك الفن الذي عُزّز وصُقِل عبر التقاليد المتوارثة الراسخة، وهي النقطة التي ينظر فيها عقلي الجيرماني "طاهر الذيل" بمشاعر ملؤها الحسد والشوق إلى قارة آسيا الأم، القارة التي استطاعت عبر التدريبات الروحية الموغلة في القِدم أن تسبغ إيقاعًا نبيلًا على ما يبدو لنا ظاهريًا وكأنه حالة هلامية، أو لنُسمِّها حالة فعل اللاشيء.

ولا أدّعي الفخر لو قلتُ لكم إني كرّستُ جانبًا كبيرًا من وقتي لفحص مشكلة الفن هذهِ فحصًا تجريبيًا دقيقًا. والتجارب التي اكتسبتُها من هذه الدراسة جديرة بأن أُخصّص لها مقاربة لاحقة خاصّة، ويكفيني في هذا الصدد أن أقول إنني تعلّمتُ عن كثب كيفية ممارسة "فعل اللاشيء" في الأوقات الحرجة ممارسةً منهجية ممتعة. وحتى لا يُمنى الفنّانون من القُراء بخيبة الأمل، بدلًا من تعلّم فن الكسل تعلُّمًا منهجيًا، فسأقدّم في السطور القليلة التالية نبذة عامة حول تماريني الأولى في معبد هذا الفن:

1. في أحد الأيام، ومدفوعًا بهاجسٍ غامض استعرتُ من إحدى المكتبات الطبعة الألمانية الكاملة من كتاب "ألف ليلة وليلة" و"رحلات البطل ساجد، حكايات شعبية تركية"، وانكببتُ على قراءتهما؛ استشعرتُ بمتعةٍ قصيرة للوهلةِ الأولى، ما لبثت أن تحوّلت إلى حالة من الملل.
2. بعدها رحتُ أتأمّل أسباب إخفاقي في الاستمتاع بهذه الأعمال، فأدركتُ في النهاية أني لا يُمكنني تذوق متعة بهذه الكتب إلا وأنا مستلقٍ أو قاعد على الأرض، لأن الكرسي الغربي، مستقيم الظهر يسلب هذه النصوص كل مظاهر

التأثير والسحر. وتـنبّهـتُ للمرة الأولى في حياتي إلى المنظور المختلف الذي صرتُ أنـظر به إلى العالم وإلى الأشياء في أثناء الاستلقاء أو القعود.

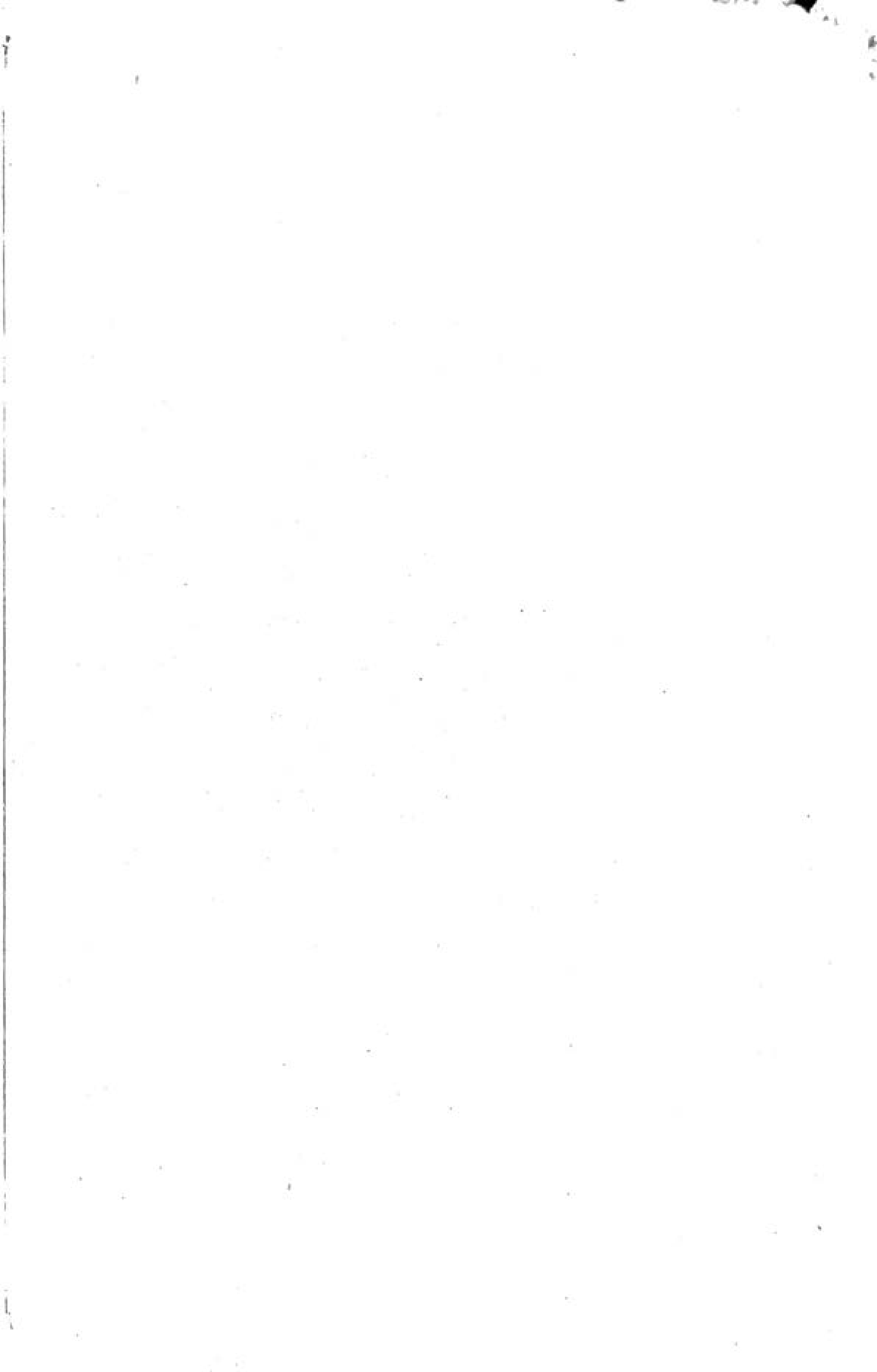
3. ثم اكتشفت بعدها أن تأثير الجوّ الشرقي للأعمال يتضاعف لو حُـكـيَتْ هذه القصص أمامي بصوتٍ عالٍ، بدلًا من أن أقرؤها بنفسي (مع ضرورة أن يكون القارئ مستلقيًا أو قاعدًا أيضًا).

4. سـرعان ما خلقت القراءة الرشيدة المتأنّية في نفسي شعور المتفرّج المستسلم، وهو ما مكّنني من البقاء هادئًا لبضع ساعات من دون قراءة كلمة واحدة، ومِنْ صَـرف انتباهي ناحية الانشغال بأشياءٍ تبدو تافهةً ظاهريًّا (كمراقبة حـركة طيار البعوض، أو مراقبة ذرات الغبار في ضوء الشمس، أو أشعة الضوء... إلخ). ومن قلب هذا الشعور تعاظمتْ دهشتي من كثرة ما أكتشفه من حولي ومن النسيان التام لذاتي، لا سيّما بعد أن تعلّمتُ التدريب على متعة "فعل اللاشيء"[1]، ذلك الفعل الشافي الذي لم أسأم منه قط. كانت هذه هي البداية. ربما يسلك غـيري سُبلًا أخرى للخروج من سطوة الحياة الواعية إلى ساعات نسيان الذات والانسلاخ عنها، وهي الساعات التي لا غنى عنها لأي فنان، لكنها عصّية على التحقق. ولو أغـوى اقتراحي أي مُعلّم غربي من مُعلّمي فن

(1) وردت الكلمة في الأصل بالإيطالية: far niente، أي متعة ألا تفعل شيئًا (المترجم).

الكسل أن يواصل تبليغ رسالته ومنهجه، فمعنى هذا أن رغبتي المتحمِّسة قد تحقَّقتْ.

(1904)



عن الحب

لا شكَ أن صديقي، السيد "توماس هويفنر"، هو أكثر معارفي خبرة في شؤون الحب. إذ كانت له علاقات غرامية عديدة مع عددٍ كبير من النساء، وهو إلى جانب ذلك رجل متمرّس في فنون الملاطفة والتودُّد إلى النساء، ولا يكفّ عن الزهو بفتوحاته العظيمة. كان عندما ينغمس في حَكْي مغامراته العاطفية يتملكني شعور بأنني مجرد تلميذ.

رغم ذلك لا يفارقني شعور في أحيانٍ كثيرة أن الرجل لا يفقه شيئًا في أمور الحب مثلما نفقهها نحن، لأني لا أظن أنه بقي ساهدًا لمدة ليالٍ طويلة يتقلّب في فراشه، منتحبًا بالبكاء على محبوبة يهيم بها عشقًا.

على أي حال لا يحتاج الرجل إلى فعل ذلك، ولا أريد أن أحسده على ما هو فيه، لأنني لا أراه رجلًا سعيدًا على الرغم من كل النجاح الذي أحرزه.

والسبب أنني أرى وجهه في أوقاتٍ كثيرة مسكونًا بمسحة كآبة خفيفة، وأرى هيئته مفعمة بنزعة خفيفة من الاستسلام، البعيدة عن التشبّع بالحب. أيًّا ما كان الأمر؛ هذه مجرد تخمينات وربما تكون ضربًا من الأوهام والتهيؤات التي يصوِّرها لي عقلي. في مقدوركَ

تأليف كتب في علم النفس، لكنك ستعجز حتمًا عن فهم نفوس البشر، كما أنني لستُ عالمًا نفسيًا.

علي أي حال يبدو لي صديقي "توماس" محترفًا بارعًا في ممارسة لعبة الحب، وسبب براعته افتقاره إلى الشعور بالحب الحقيقي، لأن الحب ليس لعبة على الإطلاق، ويبدو لي أيضًا أنه مصاب بالاكتئاب لأنه يدرك هذه الحقيقة ويأسف لهذا النقص الذي يعتور روحه.

مرّة أخرى فكل هذه افتراضات وأوهام. رغم ذلك لا أنكر أنه قد استولى عليَّ ذهول مفاجئ لما حكاه لي عن السيدة "فورستر"، رغم أنّ ما حكاه لم يكن في الواقع تجربة حب أو حتى مغامرة عاطفية، ولم يكن يعدو في أغلب الأحيان عن حالة نفسية طارئة، أو طُرفة حكاها بلغة شاعرية.

قابلتُ السيد "هوبفنر" ذات مرة عندما كان على وشك مغادرة حانة "بلو ستار"، واستطعت إقناعه بالبقاء قليلًا لاحتساء زجاجة نبيذ معي. طلبتُ زجاجة نبيذ من نوع Mosel، الذي لا أشربه في العادة لكني طلبته إرضاءً لخاطره، إلا أنه سرعان ما هتفَ مناديًا على النادل على مضض قائلًا:

"انتظر! لا تحضر نبيذ Mosel".

ثم أمَرَ بجلب نوعٍ آخر فاخر من النبيذ، الذي راق لي، وهكذا انغمسنا في الدردشة وسط قرع كؤوس النبيذ. ثم انتقلتُ بحذر إلى الحديث عن السيدة "فورستر"، وهي امرأة بارعة الجمال، عُمرها يزيد عن الثلاثين قليلًا، حديثة العهد بسكن المدينة، ومعروفة بتعدد علاقاتها الغرامية.

تَظاهرَ أمامي بأنه لا يعرفها، لكني كنت قد عرفتُ مؤخرًا أنه بدأ في التردد عليها.

"نعم.. نعم.. السيدة فورستر".

قالها بعد أن استجاب لرجائي.

"ولكن ماذا تودّ أن تسمع مني؟ ليس هناك ما يربطني بها".

"يا رجل! لا شيء على الإطلاق؟".

"على حسبْ! أقصد ليس عندي ما أحكيه بشأنها، وليتني كنتُ كاتبًا!".

ضحكتُ وقلت:

"وماذا تعرف أنتَ عن عالم الكُتاب؟".

"ولمَ تظنني لا أعرف شيئًا عنهم؟ الكُتاب أناس لا يعيشون تجارب حقيقية؛ أستطيع إخبارك بآلاف الأشياء التي مررتُ بها في حياتي، وكان الأجدر بي تدوينها. أفكّر دائمًا لماذا لا يدوّن الكتاب ما يعيشونه أولًا بأول حتى لا تضيع تجاربهم. إنكم، معشر الكُتّاب، تثيرون ضجة حول أكثر الأشياء بديهية في الحياة، وتصنعون من كل تفاهة رواية!".

"وماذا عن حكاية السيدة فورستر؟ أهي حكاية أم رواية؟".

"لا، إنها مجرد مشهد صغير، قصيدة.. حالة مزاجية".

"حسنًا، تفضّل.. كلي آذان صاغية".

"جذبَـتْ السيدة فورستر انتباهي. لا بُدَّ وأنك تعلم كلام الناس عنها. راقبت سلوكها عن بعد، فعرفتُ أنها امرأة ذات ماضٍ حافل، ويبدو أنها جرَبَتْ وعشقتْ شتى صنوف الرجال، لكنها لم تَصبر على رجلٍ واحد، إلا أنها كانت لطيفة في كل الأحوال".

"ماذا تقصد بِلطيفة؟".

"الموضوع بمنتهى البساطة.. أقصد أنها كانت تعيش حياتها دون إفراط ولا تفريط، امرأة رشيقة القوام، جسدها طوع أمرها، متحفظة السلوك، تحسن تدبير أمورها، سريعة البديهة. لا أذكر موقفًا لم تستطع فيه ضرب المثل الأعلى في إظهار الجمال الفتّان، وكان هذا ما أسر انتباهي فيها، لأني أسأم من الجمال الساذج الذي يداري نفسه، يشدّني دومًا الجمال الواعي بذاته، الشكل المنضبط، الثقافة العالية، دون تنظير فارغ!".

"ولا أنا أُفضّلُ التنظير! لذا قررتُ التعرّف عليها، فترددتُ على مكان وجودها أكثر من مرة. كان من السهل ملاحظة أنّها بلا عشّاق في هذه الفترة؛ الرجل عندها مجرد تمثال زينة من الفخار، يُزال واحد ويوضع آخر. وهكذا بدأت أخطب ودّها من خلال نظرات خاطفة أختلسها عبر الطاولة التي نجلس إليها، وعبر كلمة خافتة أهمسُ بها أثناء تناول كأس نبيذ، قبلة طويلة أطبعها على يدها الرقيقة، فلم تُبدِ اعتراضًا انتظارًا للخطوة التالية. ثم زرتُها في توقيتٍ أعلم وجودها فيه بمفردها. عندما جلستُ قبالتها وجهًا لوجه سرعان ما تنبهتُ إلى أنه لا مجال للمراوغة أمامها، فقررت اللعب بأوراقٍ مكشوفة، وصارحتها بأني واقع في غرامها وأني طوع أمرها، فدار بيننا هذا الحديث:

"دعنا نتكلّم عن شيءٍ أكثر إثارة للاهتمام!".

"سيدتي الجميلة.. لا شيء في الدنيا يثير اهتمامي أكثر منكِ أنتِ. جئتُ إليكِ لأقول لكِ هذه الكلمة وحسب، ولو رأيتِ فيَّ إنسانًا مملًا، سأنصرف على الفور".

"حسنًا.. وماذا تريد مني؟".

"لا أريد منكِ سوى الحب، سيدتي الجميلة".

"لا أعرف شيئًا اسمه الحب، كما أنني لا أحبّكَ".

"سترَيْن أنني لا أعبث معكِ، أضع كل ما أملك رهن إشارتكِ، وسأفعل كل ما أستطيع فعله، سأفعل كل ما تودّينه مني".

"هذه هي الكلمة السائرة على لسان الجميع، لا أحد منكم يأتي بجديد وهو يُعلن عن حبّه، وماذا ستفعل إذن لتأسر قلبي؟ لو كنت تحبُّ حقًّا لفعلتَ شيئًا منذ أمدٍ بعيد".

"شيء مثل ماذا؟".

"المفترض أن تعرف ذلك من تلقاء نفسك.. كأن تصوم ثمانية أيام مثلًا، أو تُطلق على نفسك النار، أو تكتب قصيدة شعرية".

"لكني لستُ شاعرًا".

"وما الضير؟ مَن يفهم الحب على أصوله سيكون بمقدوره أن يكون شاعرًا بسهولة، وأن يتحوّل إلى بطلٍ لأجل الحصول على ابتسامة، أو غمزة أو كلمة من ثغر حبيبته، حتى لو كانت قصائده رديئة، لكنها ستكون ملتهبة، مفعمة بمشاعر الحب الصادق".

"معكِ كل الحق سيدتي الجميلة، لستُ شاعرًا ولا بطلًا، كما أني لن أطلق النار على نفسي، ولو قُدِّر وفعلتُ ذلك، لفعلته كمدًا على كون حُـبي لم يرق إلى مستوى رغبتك، لكني عِوضًا عن ذلك كله، فأنا أتمتَّع بسمة خاصة واحدة، تُميّزني عن أفضل عشاق الدنيا.. ميزة أني أفهمكِ".

"وماذا تـفهم؟".

"أفهم اضطرام الأشواق في روحكِ مثلي تمامًا، أنتِ لا تتحرقين شوقًا إلى حبيب، بل إلى الحب نفسه، تـريدين أن تُحبّين إنسانًا ما حبًا أعمى بلا غرض، لكنك لا تستطيعين".

"أتظن ذلك؟".

"نعم أظن ذلك، أنتِ تبحثين عن الحب مثلما أبحث أنا عنه، أليس الأمر كذلك؟".

"ربما".

"لذلك قد لا تكونين في حاجةٍ إليّ، ومن ثم لن أزعجكِ مجددًا، لكن أطمع أن تخبريني بشيءٍ قبل أن أنصرف: هل سبق وأن قابلتِ الحب الحقيقي ولو لمرة واحدة في حياتكِ؟".

"ربما قابلتُه مرة واحدة فقط. وما دام النقاش وصل بنا إلى هنا، فلا بأس من أن أخبركَ. حدث ذلك قبل ثلاث سنوات، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أشعرُ فيها بمشاعر حبٍ حقيقية".

"هل لي أن أعرف المزيد؟".

"لا مانع. جاء إليَّ رجل وتعارفنا، ثم وقع في حبي، ولما أخبرته أني متزوجة كتمَ حبّه في قلبه، ولكنه عندما علِمَ أني لا أحب زوجي وأن لديَّ عشيقًا، جاءني واقترح عليَّ فسخ الزواج. لكن الأمور لم تسر كما أريد، فراح يهتم بأمري، راح يحمينا، ويحذرني من كل خطرٍ يقترب مني، فصار صديقي الحميم ومستشاري المخلص. ولما عرفَ أني تركتُ عشيقي لأجله، وأردت استبداله بعشيقي القديم، غضب وذهب ولم يعد؛ كان يريدني زوجة له. كان هذا هو الرجل الحقيقي الذي أحبّني من قلبه، لا أحد سواه".

"أفهم كلامك".

"والآن ألم يأن وقت الانصراف؟ لقد قلنا لبعض ربما ما هو أكثر من اللازم".

"الوداع إذن. الأفضل ألا آتي إليكِ ثانية".

بعدها لزم صديقي الصمت لبرهةٍ من الوقت، ثم ما لبث أن نادى على الساقي ودفع الحساب. لكني استطعتُ أن أستخلص من الحكاية التي رواها لي أنه يفتقر إلى القدرة على الحب الحقيقي، وقد اعترف الرجل بنفسه بذلك. على أي حال ينبغي لنا أن نُصدّق الناس عندما يتكلمون عن نقاط ضعفهم وعيوبهم، لكن ذلك لا يمنع من أن بعض الناس يرَون أنفسهم نموذجًا للكمال، والسبب أنهم يغترّون بأنفسهم. إلا أن صديقي الذي أحكي لكم عنه لم يفعل ذلك، وربما يكون ذلك هو السبب في أن فكرته المثالية عن الحب هي التي صنعتْ منه هذا الإنسان. ولا يستبعد أيضًا أن يكون صديقي كان يمازحني وأنه اختلق حكاية حديثه مع السيدة "فورستر"

اختلاقًا، لأنه شاعر، لكنه يكتم عن الناس أنه شاعر، مهما حاول أن يبعد عن نفسه هذه التهمة.

على أي حال، هذه مجرد افتراضات وأوهام!

(1907)

عن فن السفر

عندما اقترحوا عليَّ كتابة شيءٍ عن فن السفر، أغرتني للوهلة الأولى فكرة بدء حديثي بأن أصبَّ جام غضبي على فظاعة السفر في أيامنا هذه، وعلى رغبة الناس العبثية في السفر، وعلى الحديث عن الفنادق العصرية الفارهة، الطافحة بالجمود والكآبة، وعن المدن الكبرى مثل مدينة "إنتير لاكن"[1] ومدينة "برلين"، عن منتزهات الغابة السوداء[2] التي صارت اليوم باهظة الثمن على نحوٍ سخيف، وعلى السُيّاح التافهين الذين يرغبون في العيش على سفوح جبال الألب بنفس نمط العيش في بيوتهم، وبالحديث عن ملاعب التنس في "لوتسيرن"، وعن أصحاب النُزل، والنُدّل، والجمارك، وأسعار الفنادق، والنبيذ الريفي المغشوش والأزياء الشعبية.

عندما أفضيتُ في إحدى المرات برغبتي هاتهِ إلى عائلة ألمانية رافقتني في رحلة السفر بالقطار بين "فيرونا" و"بادوا"، طُلب مني بأدبٍ جمّ أن ألزم الصمتَ، وفي مرة ثانية حينما صفعتُ نادلًا وقحًا

(1) مدينة سياحية في مقاطعة إنتيرلاكن-أوبرهاسلي في سويسرا (المترجم).

(2) منطقة جبلية ساحرة تقع جنوب غرب ألمانيا، وسُميت بالسوداء نظرًا إلى غاباتها المهيبة المتشحة بالسواد بسبب كثافة أشجار الصنوبر العملاقة المخضرة طوال السنة (المترجم).

في مدينة "لوتسيرن"، لم يُطلب مني بأدب أي شيء، بل طُلب مني مغادرة النُـزل على وجه السرعة.

ومنذ تلك اللحظة تعلّمتُ أن أتحكم في أعصابي. ثم خطر بذهني أنني استمتعتُ بجميع أسفاري الصغيرة، وأني جلبتُ معي من كل رحلةٍ كنزًا، صغيرًا كان أم كبيرًا. فلماذا أندبُ حظي إذًا؟

تكتظ أرفف المكتبات بالكثير والكثير من الكتب والكتيبات حول فن السفر، لكن أكثرها -بحسب معرفتي- مملٌ سقيم. ومن ثمَّ فلو أراد المرء الاستمتاع بسفره، فالأجدر به أن يعرف أولًا ما الذي يفعله ولماذا يفعل ذلك، لأن سُكان المدن الذي يسافرون هذه الأيام لا يعرفون حقًّا لِمَ يسافرون.

ربما يسافر أحدهم لارتفاع درجة الحرارة في مدينته فصل الصيف، أو يسافر لأنه يأمل في "تغيير الجوّ"، أو في رؤية مشاهد جديدة وبشرٍ جدد، أو في الحصول على قسطٍ من الراحة من عمله المرهق. يسافر قاصدًا الجبال لما يعتريه من شوقٍ غامض إلى العودة إلى الطبيعة البِكر وإلى الأرض، ويضطرم في نفسه شوق غير مفهوم ولا مُبرر إلى اللوذ بها، أو يسافر إلى "روما" طلبًا للتعلّم والثقافة. لكن أغلب من يسافرون، إنما يفعلون ذلك لأن أقاربهم وجيرانهم سافروا، ولأنهم يتخذون بعد ذلك من السفر مادة للحديث والتباهي، لأن السفر أصبح موضة هذا العصر. وهذه كلها دوافع مفهومة ولا ضير منها.

ولكن أتساءل أحيانًا في نفسي: لماذا يسافر مثلًا السيد "كراك أوير" إلى مدينة "بيرتشسغادن "[1]، أو السيد "موللر" إلى مدينة "جراوبوندين"، أو السيدة "شيللينج" إلى مدينة " زانكت بلازِن"[2]؟

سنكتشف أن الأول يذهب إلى مدينة "بيرتشسغادن" لأن لديه معارف يسافر إليهم بانتظام، وأن السيد "موللر" يذهب إلى "جراوبونيدن" لأنها بعيدة عن مدينة برلين الصاخبة، وأنها صارت موضة الأيام أن يسافر الناس إلى هناك، وأن السيدة "شيللنج" سمعت أن هواء بلدة "زانكت بلازن" نقيّ!

الحق أقول لكم: لو غيّر الثلاثة مقاصدهم في السفر وخططهم، لما تغيّر من الأمر شيء.

كلنا لدينا معارف في كل مكان، وكلنا يستطيع إنفاق أمواله حيثما يشاء، والهواء العليل موجود في كل ناحية، فالقارة الأوروبية لا تعدم أماكن طبيعية خلابة لا تحصى.

لكن السؤال المُلحّ: لماذا تحديدًا "بيرتشسغادن" أو "زانكت بلازِن"؟ هنا مربط الفرس ومكمن الخطأ.

ينبغي أن يكون السفر مقرونًا على الدوام بتجربة حياتية، لأن المرء لا يستطيع تجربة شيءٍ ذي قيمة إلا لو وُجد داخل محيطٍ

---

(1) بلدة جبلية تقع على سفح جبال الألب السويسرية، بالقرب من حدود النمسا وهي مشهورة بين عشاق تسلّق الصخور الوعرة، ومن هنا جاءت سخرية هسّه (المترجم).

(2) بلدة ألمانية تقع في مقاطعة بادن فورتيمبيرج، جنوب منطقة الغابة السوداء، وهي منطقة نائية ولا تُعد مزارًا سياحيًّا (المترجم).

تربطه به روابط عاطفية وإنسانية حقيقية. صحيح أن نزهة قصيرة من دون ترتيب من حينٍ إلى آخر، أو قضاء أمسية ممتعة في منتزه، أو السفر في رحلة بالباخرة عبر بحيرة أثيرة، ليست تجارب فارقة في حد ذاتها، ولا هي أسفار تثري حياتنا وتحثنا على مواصلة العمل بقوة، لكن اسمع نصيحتي: ربما تصبح هذه الأشياء الصغيرة فارقة ومؤثرة بالنسبة إليك، لكنها قطعًا لن تصبح ذات قيمة وطَعْم بالنسبة إلى السيد "كراك أوير" أو السيد "موللر". ربما لا يكون لهؤلاء مكان بعينه على وجه الأرض تربطهم به علاقة عميقة؛ أقصد لا بقعة بعينها، ولا ساحل ولا جزيرة ولا جبل ولا مدينة قديمة أثيرة تحقِّقُ نظرة واحدة إليه الأحلام القديمة أو تشكل زيارته كنزًا بالنسبة إليهم.

رغم ذلك في مقدور مَن ضربتُ بهم المثل لاحقًا السفر بطريقة أكثر جلبًا للسعادة والمتعة، وتحديدًا لو سافروا قبل الرحلة، حتى لو كان ذلك السفر على الخريطة فقط؛ بحسْبهم أن يلقوا نظرة خاطفة على المعالم الجوهرية للبلد والمكان الذي يسافرون إليه، وعلى علاقة موقع هذا البلد، التربة، المناخ، الشعب، بوطنهم الأمّ وبالبيئة المألوفة لديهم. كما يجدرُ بهم أثناء الإقامة في مكان غريب التعاطف مع طبيعة المنطقة وخصائصها، وألا ينظروا بانبهارٍ وإعجابٍ عابريْن إلى الجبال والشلالات والمدن كآياتٍ من آيات الطبيعة، بل أن يدركوا حقيقة أن كل مظهر من هذه المظاهر الطبيعية ضروري في مكانه، وهذا مبعث جمالها.

وكل من يعقد عزمًا صادقًا على السفر بغرض التجربة، فسيكتشف بسهولة أسرار فن السفر البسيطة، ولن يشعر برغبة في شرب بيرة ميونيخ في مدينة "سرقوسة"[1] الإيطالية، وحتى لو أسعده الحظ وعثر عليها فسيجدها بلا طعم، باهظة الثمن، كما أنه لن يسافر إلى بلدٍ أجنبي من دون الإلمام بأساسيات لغتها، ولن يعقد مقارنة بين المناظر الطبيعية واختلاف ألوان البشر والعادات والمأكولات والمشروبات في البلد التي يزورها وبلاده وفقًا لمعايير بلاده.

لن يتمنّى أن يكون أهالي "فينيسا" أسرع إيقاعًا، ولا أهالي "نابولي" أبطأ إيقاعًا، ولا أهالي "بيرن" أكثر تهذبًا، ولا نبيذ "كيانتي" أحلى مذاقًا، ولا "الريفيرا" أكثر برودة، ولا شواطئ البحيرات أشدّ انحدارًا.

سيحاول المسافر ما وسِعه موائمة نمط حياته وفق عادات المكان وطبائعه، فسيستيقظُ مبكرًا لو سافر إلى "جريندلفالد"[2]، وسيستيقظ متأخرًا لو سافر إلى "روما". سيحاول في كل مكانٍ يرتاده الاقتراب من الناس وفهم أذواقهم ومشاربهم. ستراه يحجم عن السفر مع الشركات السياحية الكبرى، ولن ينـزل في أغلى الفنادق وأشهرها، بل سيسعى إلى أن السكن في النُزل المحلية البسيطة التي يكون أصحابها وعُمّالها من السكان المحليين، ويا حبذا لو استطاع أن يسكن في منازل عائلية تتيح له فرصة العيش وسط الناس وتكوين صورة مكتملة الأركان عن حياة البشر الحقيقية هناك.

---

(1) مدينة في جزيرة صقلية الإيطالية تقع على الساحل الجنوبي الشرقي، وهي مقصد سياحي عالمي اعتبرته منظمة يونسكو ضمن مواقع التراث العالمي (المترجم).

(2) قرية في سويسرا (المترجم).

ربما يـرى المرء سخافةً في رؤية سائح في إفريقيا يركب الجمل، مرتديًا سترة "الفراك"[1] أو معتمرًا القبعة عريضة الحواف، لكنه لن يرى غضاضة في ارتداء الأزياء الباريسية في مدينة "تسيرمات" السويسرية أو "فينجن"، والتحدث باللغة الألمانية في المدن الفرنسية، وشرب نبيذ الراين في قرية غوشينن السويسرية، وتناول الطعام نفسه سواء أكان في مدينة "أورفيتو" الإيطالية أم في مدينة "لايبزيج الألمانية".

ولئن سألت هذا النوع الشكّاء من المسافرين عن "بيرنير أوبرلاند" السويسرية، فسيشكون لك بنبرةٍ مستاءة عن ارتفاع أسعار تذاكر سكك حديد "يونج فراو"[2]، ولئن سألتهم عن مدينة "صقلية"، فسيشكون لك خلوّها من غرفٍ فندقية مزودة بالتدفئة، لكنهم سيدلّونكَ على بلدة "طبرمين" الإيطالية التي ستنعم فيها بمأكولات فرنسية شهية المذاق، ولئن سألتهم عن طبيعة الناس والحياة في "طبرمين"، سيقولون إنهم يرتدون أزياء عجيبة مضحكة، وإنهم يرطنون بلهجة دارجة أشبه بالطلاسم.

والآن كفى من هذا الكلام! كانت في نيتي الحديث عن جمال السفر، لا عن عبيثة بعض المسافرين.

---

(1) الفراك سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين كانت تُلبس في أوخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (المترجم).

(2) سكة حديد تقع في سويسرا تعتبر أعلى سكة حديد في العالم، إذ أن أقصى ارتفاعاتها تعلو بمقدار 11 ألف قدم فوق مستوى سطح البحر.
بدأ بناء سكة حديد يونغفراو في سنة 1896 (المترجم).

لا يكمن فن السفر في سعي المرء إلى التخفّف من رتابة الحياة اليومية، ولا في رغبته في أن يأخذ قسطًا من الراحة من عناء العمل ومتاعب الحياة، ولا أن يجتمع بالصدفة مع آخرين، ولا أن يشاهد مناظر جديدة، ولا في أن يشبع فضوله. فن السفر يمكن في خوض التجربة، في أن نصير أكثر ثراءًا بعد انتهاء الرحلة، وأن نعمل على المؤالفة بين الخبرات والتجارب التي اكتسبناها في لُحمة عضوية واحدة، وفي إعادة اكتشاف الحقائق والقوانين القديمة في ظلّ ظـروفٍ جديدة تمامًا عما عهِدناه. وأُضيف إلى ما سبق ما أسمّيه "رومانسية السفر"؛ بمعنى فيض الانطباعات التي تنثال على ذهنك وأنت في رحلة، البهجة الممزوجة بالقلق الدائم في انتظار المفاجآت، وأخيرًا وليس آخرًا في متعة التعامل مع غرباء.

صحيح أنك لن تتذكّر مظهر حامل الحقائب أو النادل سواء أكنتَ في "برلين" أم في "باليرمو"، لكنك لن تنسى أبدًا هيئة الراعي "الرائيتي"[1] الذي باغتكَ ظهوره وأنتَ تتمشى وسط المراعي السويسرية، ولن تنسى بالمثل تلك العائلة الصغيرة التي مكثتَ في كنفها ذات مرة لمدة أسبوعين في بلدة "بيستويا" الإيطالية.

---

(1) المقصود أهالي المقاطعة "رائيتيا" وهي محافظة سابقة في جبال الألب كانت تابعة إلى الإمبراطورية الرومانية، وتم اشتقاقها من شعبها الرائيتي من الذين كانوا يسكنون فيها. كانت حدودها تبدأ من غرب هيلفيتي (في سويسرا حاليًا) وامتدت شرقًا إلى نوريكوم (في النمسا حاليًا) ومن فينيديليسيا شمالًا (بافاريا حاليًا) وإلى حدود فينيسيا (المترجم).

ربما تنسى الأسماء، وربما لا تتذكّر بوضوح مصائر من قابلتهم ولا مخاوفهم، لكنكَ لن تنسى أبدًا اللحظات الأولى لاقترابكَ من أطفال الغرباء، ثم من المرأة الصغيرة شاحبة الوجه، ثم من ربّ الأسرة، أو الجد في ساعة سعيدة. أقول لن تنسى ذكراك معهم لأنكَ حين رأيتهم لم تكن مضطرًا إلى التحدث معهم حول موضوعات مكرورة ولا إلى الكلام القديم المعتاد، لأنكَ كنت شخصًا جديدًا وغريبًا عنهم، مثلما كانوا هم غرباء بالنسبة إليكَ، ومن ثمَّ لم تجد أمامك إلا نبذ الأحاديث المألوفة، والتعبير عن صورة نفسك بنفسك، والعودة إلى جذور كيانك الأصيل لتختبرهم بشيءٍ حقيقيّ عن نفسك. صحيح أنك قد تتحدّث معهم حول أشياء صغيرة هامشية، لكن لا تنسَ أنكَ كنتَ تتحدّث معهم كإنسان يتحدث إلى إنسان، كنتَ تتلمس طريقك، وتتساءل مدفوعًا برغبةٍ قوية في فهم ولو نزر يسير عن حياة هؤلاء الغرباء، وانتزاع جزءٍ من كيانهم ومن حياتهم واصطحابهما معك.

إن أي مسافر لا يكتفي باقتفاء أثر المعالم المشهورة الأخّاذة، والانبهار بما يراه من مناظر وما يزوره من بلدان، وإنما يضيف إلى ذلك الرغبة الصادقة في فهم ما هو حقيقي وعميق والوقوف على أسراره بحب، فستتألق ذاكرته ببريقٍ خاص من المصادفات والذكريات الصغيرة.

فأنا مثلًا عندما أُفكّر في مدينة "فلورنسا"، فإن أول ما يتبادر إلى ذهني ليست الكاتدرائية الضخمة ولا قصر "فيكيو"[1]، وإنما بركة الأسماك الذهبية الصغيرة في جياردينو بوبولي، التي دارت عندها -في أول يوم أقضيه في فلورنسا- محادثة مع بعض النساء وأطفالهن، وسمعتُ للمرة الأولى اللغة الفلورنسية، وشعرت للمرة الأولى أن المدينة التي طالما عرفتها من خلال الكتب كانت شيئًا حقيقيًا وحيويًا يمكنني التحدث إليه ولمسه، ولعل هذا هو السبب أن ملامح الكاتدرائية والقصر القديم ومعالم "فلورنسا" الشهيرة لم تبرح ذاكرتي قط.

أعتقد أني خبرتُ المدينة خبرة نابعة من القلب، خبرتها خبرة أفضل من خبرة السياح الممسكين بكتاب دليل السفر[2]، وهي خبرة قوامها التجارب الهامشية الصغيرة. وحتى لو كنت قد نسيت التقاط بعض الصور من معرض "أوفيزي"[3]، فتكفيني عوضًا عن ذلك

---

(1) وردتْ في الأصل بالتسمية القديمة Palast der Signorie: يجسد القصر التاريخ الثري للمدينة، حيث بني القصر على نمط القلاع والحصون العسكرية، ويعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر ميلادي، وهو من أشهر المقاصد السياحية في فلورنسا (المترجم).

(2) وردت في الأصل Baedekertouristen، والمقصود السيّاح المسترشدين بدليل السفر Baedeker، وهو دليل السفر الألماني إلى المقاصد السياحية في الداخل والخارج، ظهر لأول مرة في سنة 1832 عن دار نشر كوبلنز التي أسسها "كارل بيديكر" سنة 1827 (المترجم).

(3) أحد أكبر المتاحف الفنية في أوروبا والعالم، ومن أهم أماكن السياحة في فلورنسا، ويعد من أكثر المتاحف زيارةً في إيطاليا، حيث يعد في المرتبة الثانية بعد متحف الفاتيكان في روما (المترجم).

ذكرى الأوقات الممتعة التي قضيتها مع صاحبة النُزل في المطبخ، وذكرى الأمسيات التي أمضيتُها مع الشباب والصبيان ونحن ندردش في الحانات الصغيرة، وذكرى خيّاط الضاحية الثرثار الذي حاك لي سروالي الممزق أمام عتبة داره، مُرددًا الخطب السياسية الرنانة والألحان والأوبرات والأغاني الشعبية المفعمة بالحيوية. غالبًا ما تتحول هذه الذكريات التافهة البسيطة إلى جوهر الذكريات الثمينة التي لا تفارق أذهاننا.

لن أنسى أبدًا ما حييتُ بلدة "تسوفينجين" السويسرية -رغم أن مدة مكوثي لم تزد عن ساعتيْن- بسبب معركة تشاجرتُ فيها بالأيدي مع شابٍ لعوب حاول بوقاحةٍ مغازلة ابنة صاحب الحانة التي زرتها. أما عن قرية "هاميرشتاين" الساحرة، جنوب مقاطعة بادن، فلم تكن لترسخ ذكراها الواضحة الجميلة بمنظر أسطح بيوتها الجميلة وأزقتها في ذهني لولا ارتباطها بتوقيت وصولي المفاجئ في وقتٍ متأخر ليلًا بعد رحلةِ تجوال طويلة ضللتُ فيها الطريق في الغابة. كنتُ قد أبصرتُ القرية فجأة ومن دون مقدمات بينما أنعطف وأنا أمر بأحد النتوءات الجبلية، فرأيتها راقدة بعيدة في الأفق، غارقة في النوم، والبيوت ملتصقة ببضعها البعض كأنها بنيان مرصوص، والقمر ينير صفحة السماء.

وهكذا لو أنني قد سلكتُ الطريق الإقليمي المريح المُعبَّد، لم أكن لأحظى بفرصة التعرّف على هذه القرية الساحرة، لذا لم ألبث في القرية إلا ساعة واحدة فقط، وأخذتُ صورة تذكارًا لتجربة جميلة ستبقى عزيزة إلى قلبي مدى الحياة، ومن خلال هذه الصورة عن هذه القرية الصغيرة كوّنتُ فكرة حية عن الريف في أبهى صورِه.

إن ما يبقى راسخًا في ذاكرتكَ هو ليلة قضيتَها في حقل برسيم أو أمسية أمضيتَها فوق حشيش مبلل بالندى، أو كسرة خبز مدهونة بالجبن أكلتَها في كوخ ناءٍ فوق جبال الألب، أو حفل زفافٍ ريفيٍ دُعيت إليه في أحد النزل التي حللتَ فيها من دون ترتيب. لا شك أن ترك الإنسان نفسه لـيدِ الصدفة لتقود مساره هو تدريب محمود، لكن ينبغي لأي سـفرٍ ألا يخلو من مغزى ومضمون بعينه، حتى يصير السفر تجربة عميقة وممتعة بحق.

فخروج المرء بدافع من فضول أو ملل للتسكّع بلا وجهة في شوارع مدن يشعر فيه بالغربة والوَحشَة لهُو أمرٌ مستهجن وسخيف. ومثلما يحيطُ الإنسان الصداقة أو الحب أو التضحية بأوجه العناية والاهتمام، ومثلما يختار كتابًا يقرؤه بعناية، يتحتم أن يكون لكل رحلة يسافر فيها، سواء بغرض المتعة أو الدراسة أو التعلم، مغزى وغاية. ينبغي أن يكون غرض السفر أن يصنع المسافر من البلد وأهلها أو المدينة أو القرية ملكية روحية، أن يرهف السمع بحبٍ وإخلاص إلى كل ما هو غريب، وأن يحاول جهده الوقوفَ على سرّها المكنون.

فتاجر النقانق الذي يقطع رحلات ذهابًا وإيابًا بين باريس وروما بدافع التباهي لن يجني أية فائدة من وراء سفره، بينما الرجل الذي طالما تاقَتْ نفسه أيام الشباب إلى تسلّق جبال الألب أو ركوب البحر أو زيارة المدن الأثرية إلى إيطاليا واستطاع تدبير الموارد لذلك، ثم توفَّر له الوقت والمال، فسوف يختبر ويستمتع في يوم واحد أكثر مما يخبر ويستمتع "مسافر الموضة" أضعافًا مضاعفة، وسوف يجلبُ من رحلته كنزًا ثمينًا يكفيه مدى الحياة، قوامه الفرحة والتفهّم والتشبّع.

أما الشخص الذي لا ينقصه المال أو الوقت ويجد في نفسه نزوعًا قويًا إلى السفر، فعليه أن يتحلىَ بالرغبة في الاقتراب من البلدان التي يريد السفر إليها شيئًا فشيئًا، وأن يستمتع بغزوّ قطعة من العالم، وأن يضرب بجذوره في كل بلدٍ يسافر إليها، وأن يجمع حجرًا من الشرق وآخر من الغرب لتشييد بناية بهيّة، أركانها مؤسسة على فهم الحياة في هذه الدنيا.

لا يخفى عليَّ بطبيعة الحال أن السواد الأعظم من مسافري اليوم هم من سكان المدن المصابين بالتعب والإرهاق، ولا تحدوهم أية رغبة أخرى إلا الاقتراب من معايشة الطبيعة البِكر التي تواسي قلوبهم، فيطيب لهم الحديث عن الطبيعة، ويقدّمون ساقًا ويؤخرون الثانية وهم يدلفون إلى عالمها. ولكن.. أين في الحقيقة يبحثون؟ وكم منهم يجدون هذه الطبيعة؟

يشيع بين الناس خطأ حاجة الإنسان إلى السفر إلى بقعة جميلة كيما يكون قريبًا من الطبيعة ويقدر على تذوّق قواها وقدرتها على مواساته. لا شكَّ أن برودة ونقاء هواء البحر أو الجبال مفيد بالنسبة لسكان المدن الكبرى الهاربين من الشوارع القائظة، فيكتفي المسافر بالهواء عندما يشعر بالانتعاش، ويتنفس على نحو أفضل، وينام قرير العين بلا أرق، فيعود إلى بيته ممتنًا، متوهمًا أنه استوعب جمال الطبيعة واستمتع بها استمتاعًا حقيقيًا، بينما هو في حقيقة الأمر لا يعرف أنه أخذ القشور ورمي باللباب على قارعة الطريق. هذا الرجل لم يتعلَم كيف يرى، ولم يتعلَم كيف يبحث وكيف يسافر.

(1904)

قراءات قبل النوم

لو اضطررتَ يومًا إلى المبيت في فندقٍ لمدةٍ تتراوح من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، فعليكَ أن تأخذ في حسبانك أن إقامتكَ لن تخلو من بعض المضايقات؛ إما أن يُعقد حفل زفاف في الفندق فيستمر ضجيج الموسيقى والأغاني طوال الليل والنهار، وينتهي الأمر في الصباح بمجموعة من السكارى يملؤون ممرات الفندق صخبًا، وإما أن يُقدم جارُكَ في الغرفة المجاورة على الانتحار باستنشاق الغاز، فتتسلّل رائحة الغاز إلى غرفتكَ، أو ربما يُطلق على نفسه النار في هدوء، وهو سلوك أكثر تهذبًا من مضايقتكَ بالغاز، رغم أن المنتحر عادةً يختار توقيتًا مزعجًا يتوقَّع فيه نزلاء الفندق من جيرانهم الصمت!

وفي أحيانٍ أخرى قد تنفجر ماسورة المياه الرئيسة بالفندق، وتضطرّ إلى السباحة لإنقاذ حياتكَ، أو ربما تستيقظ في صباح أحد الأيام في السادسة صباحًا على رؤية سُلَّم منصوب أمام نافذة حجرتك، يتسلّقه حشد من العُمال في مهمةٍ لطلاء السقف!

ونظرًا لأني أعيش منذ قرابة ثلاثة أسابيع في نُزل Heiligenhof القديم في بادن من دون إزعاج، لا أستبعد وقوع بعض المضايقات عما قريب، وقد حدثَ!

كان أكثر المنغّصات ضررًا هو كسر أنبوب التدفئة، فاضطررتُ إلى الجلوس أكاد أتجمّد من البرد طوال يوم كامل. في الصباح استطعتُ تحمُّل برودة الطقس على نحوٍ بطوليٍّ، فخرجتُ في البداية في نـزهـةٍ قصيرة، ثم عدتُ لأشرع في العمل، متدثرًا بملابس النوم الثقيلة الدافئة. كنتُ سعيدًا كلما سمعـتُ صوت قرقرة أو صفير ملفات الحديد الباردة التي تسَخّن البخار، كإشارة على اقتراب عودتها إلى الحياة، لكن الأمور لم تـسر بهذه السـرعة.

في أثناء فترة ما بعد الظهـر عندما بردتْ يداي وقدماي؛ استسلمتُ. خلعتُ ملابسي ودخلت إلى الفراش. ونظرًا لاختلال برنامجي اليومي المعتاد بسبب ذهابي مضطرًا إلى الفراش في منتصف النهار، فقد أقدمتُ على فعل شيءٍ لا أفعله غالبًا في العادة.

فيما يشبه الاتفاق، يذهب أغلب معارفي ونُـقّاد كتاباتي إلى أنني رجل سبهلل يعيش بلا مبادئ، واستدلّوا على كلامهم من بعض التأملات والفقرات المأخوذة من أعمالي التي تؤكد في نظرهم أنني أعيش حياةً مُنعّمة مستهترة وفق هواي، والسبب هو حبّي لمواصلة البقاء في فراشي حتى ساعة متأخَرة من الصباح، وعندما تعبس الحياة في وجهي لا أضـنُّ على نفسي بشرب زجاجة نبيذ من حينٍ إلى آخر، وأرفض استقبال الزوار.

ونسجًا على منوال هذه التفاهات يستنتج هؤلاء أنني رجل طـري، مُرفَّـه، مُهمِل، يمكنه الرقود في أي مكان، لا يُلزم نفسه بنظام ولا قواعد، ويعيش حياةً فاسدةً فارغةً لا قيمة لها. والحقيقة أنهم لا يقولون ذلك لأنهم يغضبون ويرونها غـطرسة أنني رجل لا يتورَّع عن الاعتراف بعاداته ورذائلـه ولا يخفي منها شيئًا.

أما لو أنني تظاهرتُ أمام الناس والعالم (وهو ما سيكون يسيرًا عليَّ) بأنني أعيش نمط حياة برجوازية راقية، ولو ألصقتُ ملصق "الكولونيا" فوق زجاجة النبيذ لإخفاء حقيقة أنني أشرب، ولو كذبتُ على الزائرين مدعيًا عدم وجودي بالمنزل، بدلًا من إخبارهم أنهم مصدر إزعاج لي، باختصار لو عشتُ حياة الكذب والخداع؛ لا شكَّ أني سأكون صاحب أفضل سمعة في البلاد، وربما سيمنحونني قريبًا درجة الدكتوراة الفخرية!

واقع الأمر أني كلما نبذتُ معايير الحياة البرجوازية؛ ازددتُ تمسكًا بمبادئي الخاصة تمسكًا أكثر صرامة، وهي مبادئ أراها ممتازة، ولا أظن أن أحدًا من منتقِديَّ سيقوى على تحمّلها لمدة تزيد عن شهرٍ واحد فقط.

أحد هذه المبادئ هو الامتناع عن قراءة الصحف، والحقيقة أني لا أفعل ذلك عن استعلاءٍ أدبيّ أو انطلاقًا من اعتقادٍ خاطئ بأن الصحف اليومية هي أدب أشدَ رداءةً مما يُسميه الألمان اليوم "شعرًا"، ولكن بكل بساطة لأني لا أكترث بشؤون السياسة أو الرياضة أو عالم المال، ولأنني صرتُ لا أقوى على مشاهدة العالم يتجه نحو مزيدٍ من الحروب الجديدة وأنا واقفٌ مكتوف اليدين.

إلا أنّ ذلك لا يمنع من أنني أتخلص أحيانًا من عادة مقاطعة قراءة الصحف لمدة لا تزيد عن نصف ساعة فقط بضع مرات كل سنة، فيغمرني شعور بالإثارة الممتعة، تمامًا مثلما أفعل وأتردد إلى دور السينما مرةً واحدة في العام تقريبًا.

في هذا اليوم البارد، وبعد أن لذتُ بالفرار إلى فراشي، لم أجد أمامي بكل أسفٍ سوى مطالعة جريدتيْن. كانت الأولى جريدة "تسوريشر تسايتونج"، وكان العدد صادرًا قبل أربعة أيام أو خمسة فقط، والحقيقة أني لم أشتر العدد إلا بسبب نشر إحدىً قصائدي على صفحاته، وأما الجريدة الثانية فكانت أقدم منها بحوالي أسبوع، ولم تكلفني شيئًا أيضًا، فقد وصلت إلى يدي على شكل ورق تغليف.

رحتُ أطالع الجريدتين بشيءٍ من الفضول والحماسة، وأقصد بالطبع أنني قرأتُ الأجزاء التي يمكنني فهم لغتها، وتجاوزتُ سريعًا المجالات التي تتطلب لغة سرية لفهمها، أي مجالات الرياضة والسياسة وسوق الأوراق المالية. ومن ثمَّ لم يتبقَ أمامي سوى الأخبار الصغيرة وصفحة الأدب والفن، فبدأتُ أتنبَّه مجددًا إلى سبب إقبال الناس على قراءة الصحف.

جلستُ مفتونًا بوابل الأخبار المتشابكة، وأحسستُ بمتعة الفرجة على الحياةِ من بعيد دون مسؤولية، وشعرتُ من أعماق روحي ولمدة ساعةٍ واحدة بنفس شعور كبار السنّ، مِمن يجلسون لسنواتٍ طويلة، يدرؤون شبح الموت لمجرد اشتراكهم في خدمات الإذاعة انتظارًا لحدوث شيءٍ جديد بين ساعةٍ وأخرى.

في هذه اللحظة أحسستُ أن أغلب الشعراء والكتاب يفتقرون إلى الخيال الخصب، بسبب الدهشة التي استولتْ عليَّ من غرابة الأخبار التي قرأتُها، التي كانت مخيّلتي الأدبية تعجز عن ابتكار خبرٍ واحدٍ مماثل لها. الحقيقة أني قرأتُ أشياء مغرقة في الغرابة، حتى أنني بقيتُ أيامًا وليالٍ أمعن التفكير فيها.

عدد يسير من الأخبار فقط لم تؤثّر فيَّ: خبر أن السرطان ما يزال يُحارب بقوة بلا جدوى لم يفاجئني أكثر من خبر عن مؤسسة أمريكية أُسّستْ حديثًا للقضاء على النظرية الداروينية.

هناك خبر عاودتُ قراءته ثلاث مرات أو أربع، كان خبرًا من بلدةٍ سويسرية عن شابٍ أُدين بتهمة قتل أمّه بالخطأ، وحُكم عليه بسداد غرامة مالية قدرها مئة فرنك سويسري. كان من نحس طالع هذا الشاب المسكين أنه عبث بالمسدس أمام والدته، فخرجت طلقة طائشة أردَتْ الأمّ قتيلةً في الحال.

لا شكّ أن القضية باعثة على الأسى بالطبع، لكنها ليست مستحيلة الوقوع، ففي كل صحيفة أخبار أشدّ وبالًا وأكثر فظاعة. الحقيقة أني أشعر بالخجل كلما تذكرت الوقت الذي أهدرته في طريقة احتساب المحكمة للغرامة المالية التي دفعها الشاب. رجل يطلق النار على والدته. فلو كان قد تعمّدَ فعل ذلك، فهو قاتل بلا ريب، وكما هو الحال في الدنيا، لن يُسلّم إلى الحكيم "ساراسترو"[1] ليشرح له رعونة فعله، محاولًا أن يصنع منه رجلًا صالحًا، لكنه سيودع في السجن لفترة، أو ستُقطع رأسه من باب القصاص العادل ولإنفاذ النظام في البلاد التي ما يزال يحكمها الملوك ذوي العقلية البربرية العتيقة.

(1) الإشارة هنا إلى أوبرا "الناي السحري" للموسيقار النمساوي موتسارت، وهي قصة رمزية تتعلق بالصراع بين ملكة الليل، التي تمثل الجهل وقمع المعرفة، وبين ساراسترو، هو الملك الحكيم المستنير الذي يقوم حكمه على أساس الحكمة والعقل (المترجم).

على أي حال، ليس هذا الشاب قاتلًا البتة؛ إنه رجل تَعِس منحوس، ألمَّتْ به فاجعة مؤسفة. السؤال الذي يُحيِّرني الآن: على أي أساس حسابي، ووَفق أيّ اعتبار قـدَّرتْ المحكمة حياة إنسان أو قـدَّرتْ الغرامة الأخلاقية العادلة كقصاص على جريمة القتل الخطأ بمبلغ مئة فرنك سويسري فقط؟

لم تخالجني ذرة شكّ ولو للحظة واحدة في نزاهـة القاضي وحُسن نواياه، كما أنني على يقين من أنه بذَلَ قصارى جـهده لإصدار حُكم عادل، وأنه وهو يُصدر الحُكم تنازعه صراع محتدم بين إعمالٍ مواد القانون والاعتبارات المعقولة الملائمة للواقعة. ولكن أين هو الشخص الذي يمكنه تفهّم هذا الخـبر؟ ناهيك بقبول الحُكم.

على صفحة الأدب والفنون في الجريدة نفسها وقعتُ على خبرٍ يشير إلى أحد زملائي من الكُتاب المشهورين. يقول الخبر: "علمنا من مصادر مطّلعة أن كاتب أعمال التشويق والإثارة الكبير السيد (م) موجود الآن في مدينة (س) لتوقيع العقود الخاصة بتحويل روايته الأخيرة إلى عمل سينمائي، وقال الأديب الكبير (م) إن عمله الأدبي التالي سيناقش مشكلة لا تقلّ أهميةً وتشويقًا عن هذه الرواية، إلا أنه لن يكون قادرًا على إنهاء هذا العمل العظيم الرائع قبل سنتيْن!".

شغل تفكيري هذا الخبر لفترةٍ طويلة. قلتُ في نفسي: إلى أي حدٍ ينبغي لزميلي أن يواصل كل يوم عمله بإخلاصٍ وتفانٍ وعناية حتى يكون في مقدوره التجرؤ على مثل هذه التنبؤاتٍ؟ ولماذا يقول ذلك من الأساس؟ ألا يُحتمل ظهور مشكلة أو ثيمة أدبية أخرى

أكثر أهمية تُمسك بتلابيبه وتجبره على تغيير مسار الكتابة إلى شيءٍ آخر؟ ألا يمكن أن تتعطّل الآلة الكاتبة مثلًا أو أن تمرض سكرتيرته؟

ثم ما فائدة الخبر الاستباقي عن الرواية؟ وكيف سيكون شعوره عندما يضطرّ للاعتراف بعد مرور سنتين أنه لم يُنهِ كتابة الرواية بعد؟ أو ماذا لو كان تحويل روايته إلى عمل سينمائي سيدرُّ عليه دخلًا وفيرًا فينصرف إلى عيش حياة الأثرياء؟ عندها لن ينهي لا كتابة الرواية الجديدة ولا غيرها، اللهم إلا لو تولّت السكرتيرة كتابة الرواية نيابةً عنه!

ثم طالعتُ عمودًا صحفيًّا آخر علمتُ منه أن سفينة تسيبلن الهوائية Zeppelin[1] تحت قيادة د. إيكنر على وشك العودة من أمريكا، مما يعني بالضرورة أن السفينة سبق وأن طارت إلى هناك.

إنجاز مذهل. هذا الخبر أسعدني بحق. انقضَتْ سنوات طويلة لم أسمع فيها شيئًا عن د. إيكنر الذي طرتُ تحت قيادته في أول رحلة طيران بسفينة تسيبلن الهوائية فوق بحيرة "كونستانس" قبل ثمانية عشر عامًا. لم تفارق ذهني ملامح رجل قوي، قليل الكلام نسبيًّا، له وجه قبطان حازم، واثقٍ من نفسه، رغم أني لم أتبادل معه سوى كلماتٍ قليلة. واليوم، بعد انقضاء هذه السنوات كلّها، وبعد الأحداث المصيرية التي وقعت، ما يزال الرجل يواصل عمله

(1) نوع من السفن الهوائية اخترعه الألماني فرديناند فون زيبلين في مطلع القرن العشرين، واستُخدِم في الحرب العالمية الأولى، والسفينة الهوائية مركبة هوائية تعمل بغازٍ أخفّ من الهواء، ولها محرّك خاص يدفعها في الجو (المترجم).

بدأبٍ، وها هو ذا قد طار بسفينته الهوائية إلى أمريكا. لم تتمكَّن سنوات الحرب ولا أزمة التضخم المالية العالمية ولا نوائب الدهر التي حلَّتْ به من إثنائه عن مواصلة أداء مهامّه وتأكيد ذاته. ما يزال بمقدوري رؤيته بوضوح أمامي، كما سبق وأن رأيته في سنة 1910، وقال لي آنذاك بضع كلمات لطيفة (أغلب الظنّ أنه حسبني مراسلًا صحفيًّا)، ثم ركب الهيكل المعلَّق للسفينة.

لم يتحوّل د. إيكنر إلى جنرال في سنوات الحرب، ولم يتحوّل إلى خبير مصرفي في سنوات الكساد. بقيَ الرجل يواصل عمله بدأبٍ وإخلاص كصانع سفن هوائية وقبطان بحري مرموق، بقيَ مُخلصًا لمهمّة حياته. من بين طوفان الأخبار المُربكة التي تدفّقت من الصحيفتيْن، أشاع هذا الخبر السكينة في نفسي.

لكن هذا يكفي الآن.

قضيتُ فترة بعد الظهر كلها في قراءة الصحيفتين. ما يزال جهاز التدفئة معطلًا، سأحاول أن أنام قليلًا.

تصبحون على خير!

(1929)

عن ضحايا الحب

في فترةٍ من حياتي عملتُ لمدة ثلاث سنوات كبائعِ كتب في إحدى المكتبات. في البداية كنتُ أتقاضى ثمانين ماركًا شهريًّا، ثم تسعين ماركًا، ثم زاد الأجـر إلى خمسة وتسعين. كنت في قمة السعادة والفـخر لقدرتي على كسب رزقي بنفسي، من دون الاضطرار إلى اقتراض "بفيننج" واحد من أي شخص. وكانت غاية طموحي هي المضيّ قدمًا في مهنة بيع الكتب.

أتاحت لي هذه الوظيفة العيش مثل أمين مكتبة داخل الكتب العتيقة والتواريخ المطموسة والنقوش الخشبية. وكانت بعض المكتبات القديمة المرموقة تُقدِّم وظائف بأجرٍ يتجاوز مئتين وخمسين ماركًا شهريًّا. لكن الطـريق إلى ذلك الهدف كان طويلًا وشاقًا، وكان من المحتم العمل، ومواصلة العمل. كنتُ غريبَ الأطوار مثل بومة وسط زملائي، وغالبًا ما بدا لي أن تجارة الكتب كانت ملاذًا لغريبي الأطوار، الخارجين عـن المسار الطبيعي من كل صنفٍ ولون؛ كان يجتمع عندي على طاولة المكتبة قساوسة خارجين عن الملّة، طلاب فاشلون، حَمَلة دكتوراة في الفلسفة عاطلون، محرّرون فقدوا وظائفهم، ضبّاط في درجاتٍ دنيا.

كان لبعض زوّار المكتبة زوجات وأطفال، وكنتُ أراهم يهرولون بملابس رثّة بالية، بينما كان البعض الآخر يعيش عيشةً رغدة، لكن السواد الأعظم كان ممن يتباهون بأنفسهم في الثلث الأول من الشهر بعد تقاضي الراتب، فيختالون بشرب البيرة وتناول الجبن الغالي. لكن الجميع كان يتحلّى بالأخلاق الرفيعة وبدماثة الخلق، وكانوا على اقتناع بأنّ الزمن جار عليهم وأنزلهم من علياء المناصب المرموقة إلى أماكنهم المتواضعة نتيجة سوء الحظّ.

أناس غريبو الأطوار كما قلتُ لكم. لكني على الرغم من ذلك لم أقابل قط رجلًا مثل المدعو "كولومبان هوس". جاء هذا الرجل في أحد الأيام، يلتمس أية وظيفة، وتصادف وجود وظيفة خالية، كانت وظيفة "كاتب حسابات"، فسرعان ما قبلها الرجل ممتنًا، وبقي في الوظيفة مدة سنة كاملة.

الحق أقول إن الرجل لم يفعل ولم يقل شيئًا لافتًا، وكانت تصرفاته لا تختلف عن تصرفات موظف متواضع يشغل وظيفة كتابية متواضعة، لكن لم يكن يخفي عليَّ أن حياته السابقة لم تكن كذلك. كان سنّه يتجاوز الخمسين قليلًا، وكان يتمتع بِبنية جسدية قوية أقرب إلى بنية ضابط، وكان سلوكه يتسم بالنُبل وكرم الأخلاق، وكانت نظرته نـظرة ثاقبة يحسده عليها الشعراء.

ثم حدث في إحدى المرات أن صحبني "هوس" إلى إحدى الحانات لما لمسه مني من مشاعر إعجاب ومحبّة ناحيته. في هذا اليوم انبرى يُلقي خُطبة عصماء عن الحياة، وطلب مني دفع حسابه. ثم حكى لي الحكاية التي سأقصها عليكم الآن. كان يوم عيد

ميلادي، فذهبنا لتناول العشاء في أحد الأماكن، وشربنا بعض النبيذ، ثم رحنا نتسكّع في هذه الليلة الحارّة في طريقٍ محفوف بالأشجار، وأسفل آخر شجرة زيزفون في الطريق مقعد مصنوع من الحجارة، فاضطجع هو فوقها، بينما استلقيتُ أنا فوق العشب، وبدأ يحكي:

"أنتَ غرٌّ ساذج، لا تعرف شيئًا عن العالم والدنيا، أما أنا خروف أخرق، وإلا ما كنتُ لأخبركَ بما سأخبركَ به الآن. لو كنتَ شخصًا محترمًا فستحتفظ بالكلام لنفسك ولن تذيعه، ولكن على أي حال افعل ما يحلو لكَ. لو نظرتَ إليَّ الآن، فلن ترى إلا كاتبًا حقيرًا على الآلة الكاتبة بأصابع ملتوية وسروال مرقّع. ولو أردتَ قتلي، فلا مانع، ولكن لا شيء مميّز في شخصي لتقتلني. ولكن لو أخبرتكَ أن حياتي لم تكن إلا ريحًا عاصفة وشعلة في مهبّ الريح فحذار أن تضحكَ حينما يخبرك كهل بحكاية خرافية في ليلة صيفية حارة.

هل وقعتَ في الحب من قبل؟

من المؤكد أنك وقعتَ مرات عدّة. نعم، نعم. لكنك ما تزال لا تعرف ما الحب. أقول لك: أنتَ لا تعرف شيئًا عن الحب. ربما تكون قد غرقتَ في البكاء ليلة كاملة، ونِمتَ نومًا سيئًا لمدة شهرٍ كامل، وربما تكون قد كتبتَ قصائدَ شعرية وراودتكَ أفكار انتحارية. نعم أعرف ذلك. لكن هذا ليس حبًا، الحب شيء آخر. قبل عشر سنوات كنتُ رجلًا محترمًا، أنتمي إلى الطبقة الراقية. كنتُ مسؤولًا إداريًا مرموقًا وضابطًا احتياطيًا. كنتُ رجلًا ثريًا مستقلًا، لديّ خيل وخادم خاص، أعيش حياة كريمة منعّمة، أجلس في المقصورات الخاصة في دور المسرح، أخرج في الرحلات الصيفية، أنضم إلى مجموعة

فنية صغيرة، أركب الخيل وأمارس رياضة المراكب الشراعية، أخرج مع الرفاق لشرب نبيذ "بورديو" الأحمر والأبيض، وتناول الإفطار مع الشامبانيا وكؤوس النبيذ. على مدار سنوات طويلة اعتدتُ على كل هذه الأشياء، لكن لم أجد صعوبة في الاستغناء عنها.

أقول في نفسي: وما الهدف من الأكل والشراب والركوب وقيادة السيارات؟ هكذا الأمر.. قليل من الفلسفة وتتحول ملذات الحياة كلها إلى تفاهة وسقط متاع. في نهاية المطاف تصير الصحبة وحُسن السمعة وتوقير الناس أشياء غير جوهرية، حتى لو كانت ممتعة.

ألسنا هنا للحديث عن الحب؟ ما الحب إذًا؟ قلما ترى هذه الأيام رجلًا يضحي بحياته لأجل امرأة يحبّها، من المؤكد أن هذا شيء عظيم. من فضلك لا تقاطعني! أنا لا أتحدّث عن العلاقة الحميمة بين رجل وامرأة، عن القبلات ومطارحة الغرام والزواج، وإنما أتحدث عن الحب الذي يتحوّل إلى الشعور الوحيد الحقيقي في الحياة، وهذا الحب يظلّ محكومًا عليه بالوحدة، حتى لو كان حبًا مُتبادلًا بين الطرفين.

يتمثّل هذا الحب في أن تسعى كل إرادة ورغبة لدى الطرف المُحبُّ بشغفٍ صوب هدف واحد، وأن تتحول التضحية إلى لذة. لا يسعى هذا النوع من الحب إلى بلوغ السعادة، بل إلى الاحتراق والمعاناة والدمار، فيغدو شعلةً متوهجةً لا تنطفئ إلا بعد أن تأكل كل ما تطوله.

أنتَ لستَ في حاجةٍ إلى معرفة شيءٍ عن المرأة التي عشقتها. ربما تكون بارعة الجمال، وربما تكون جميلة فقط، ربما تكون امرأة عبقرية، وربما لا. وما الضير عزيزي الربّ؟ كان الحب هو الهاوية التي سقطتُ فيها، وكان الحب هو يد الربّ التي امتدتْ لتصل أعماق حياتي التافهة.

ومنذ تلك اللحظة استحالت الحياة التافهة الضئيلة إلى حياةٍ عظيمة ثرية. افهم كلامي، لم تعد حياة رجل مرموق المكانة، بل حياة إله وطفل، حياة عجولة متهوّرة، حياة مشتعلة محترقة.

ومذ ذاك تحوَّل كل ما كنتُ أراه في السابق مُهمًا وذا قيمة إلى شيءٍ ممل ومبتذل. غضضتُ الطرف عن أشياءٍ لم أكن أُفوّتها في السابق قط. كنتُ أسافر وأقطع مسافاتٍ طويلة لأرى للحظةٍ الابتسامة تعلو شفاه المرأة التي أحبّها. كنتُ مصدر سعادتها الوحيد، وكنتُ في نظرها سعيدًا وجادًا، ثرثارًا وكتومًا، سليمَ العقل ومجنونًا، غنيًا وفقيرًا في آنٍ واحد. ولما لاحظتْ حبيبتي مدى تعلّقي بها وضعتني أمام اختبارات لا حصر لها. كنتُ أشعرُ بسعادةٍ غامرة وأنا أُحقّق طلباتها. لم تراودها فكرة ولا رغبة إلا وأسرعتُ إلى تلبيتها على وجه السرعة، فأدركَتْ أني أحببتُها أكثر من أي رجلٍ آخر. مرَّتْ علينا أوقات هادئة كانت تفهم فيها مشاعري وتتقبّل عواطفي. رأينا بعضنا أكثر من ألف مرة، سافرنا معًا، طرقنا باب المستحيل لنكون معًا ولنخدع العالم.

كان من المفترض حينذاك أن أكون رجلًا سعيدًا، وربما غمرتني السعادة بالفعل في بعض الأوقات، ربما.

لم يكن في نيتي الاستيلاء على قلب هذه المرأة. عندما بدأتُ أستشعر السعادة لفترة، ولم أعد مضطرًا إلى تقديم مزيد من التضحيات، وعندما بدأت تمنحني بسهولة الابتسامة والقبلة وليال الغرام؛ انتابني القلق.

كنت أشعر بالقلق. كما أخبرتكَ، لم يكن في نيتي الاستيلاء على قلب هذه المرأة، وكان من قبيل المصادفة البحتة أن يحدث ذلك. كُتبَ على جبيني أن يكون حبّي هو شقائي، فعندما بدأ امتلاك المحبوبة يداوي آلام الحب القديمة ويطمئنني، داهمني القلق. تحمّلت الأمر لفترة من الزمن، لكن مشاعر القلق والاضطراب استولت على نفسي. تركتُ المرأة، أخذتُ عطلة وسافرتُ في رحلةٍ طويلة. كانت ثروتي قد تأثّرت تأثرًا بالغًا في تلك الفترة، ولكنّي لم أُلقِ بالًا.

وهكذا سافرتُ ولم أرجع إلا بعد سنة. كانت رحلة عجيبة! فبمجرد أن سافرتُ حتى نهشتني نار القلق مجددًا، وكلما ذهبتُ أبعد وكلما طالت مدة الرحلة، ألحّتْ عليَّ عاطفة الشوق إليها مجددًا.

شاهدتُ الكثير وابتهجتُ بما رأيت، واصلتُ السفر من مكانٍ إلى آخر على مدار عام، حتى صار نار الشوق إليها لا يُطاق، ودفعني دفعًا للعودة لأكون إلى جوار حبيبتي مجددًا، فعدتُ إلى الوطن؛ وجدتها بالطبع تفور غضبًا ومرارةً وسخطًا. لقد منحتني قلبها وأسعدتني، لكني هجرتُها! اتخذتْ عشيقًا، تأكدّتُ من أنها لا تحبّه، لكنها صاحبته لتثأر لنفسها مني.

لم أستطع إخبارها ولا الكتابة إليها بشأن السبب الذي دفعني لهجرها، ثم العودة إليها الآن. وهل كنتُ أعرف السبب من الأساس؟

وهكذا بدأتُ في محاولة خطب ودّها مجددًا والقتال لاستعادة قلبها من جديد. قطعتُ سبلًا شاقة مرة أخرى، وفوّتُ على نفسي فرصًا وظيفية مهمة، وأنفقتُ مبالغ طائلة، لا لشيءٍ سوى سماع كلمة واحدة منها أو رؤية ابتسامة واحدة من شفتيها.

فارقَتْ عشيقها، واتخذتْ عشيقًا آخر، لأنها لم تعد تثق بي. رغم ذلك كانت لا تـصدّني لو رأتني بشكلٍ عارض. كانت عندما تراني في حفل عشاءٍ في المسرح مثلًا، تنصرف عن صحبتها و ترمقني بنظرةٍ عجيبة من بعيد. كانت ترمقني بنظرةٍ لطيفة ودودة متسائلة.

كانت تظنني رجلًا فاحش الثراء، والحقيقة أنني زرعتُ هذه الفكرة بداخلها ورعيتُها حتى أتمكن دومًا من أن أفعل لها ما يعجز رجل فقير أن يفعله لأجلها. في الماضي اعتدتُ أن أقدّم إليها الهدايا، لكن ذلك انتهى بلا رجعة.

أما اليوم فقد تحتّم عليَّ العثور على وسائل جديدة لإسعاد قلبها والتضحية لأجلها. رحتُ أُنظّم الحفلات الموسيقية، وأدعو العازفين الذين يعجبونها لعزف المقطوعات والأغاني المفضلة إليها. حجزت مقصورات الدرجة الأولى في دور المسرح لأُقدّم لها تـذكرة العرض الأول، وهكذا تعوّدَتْ أن ترى مني مجددًا قدرتي على فعل آلاف الأشياء لأجل خاطرها.

غـرقتُ في دوامـة عملٍ دائم لأجلها. استُنـزِفَـتْ ثروتي، وبدأت الديون والالتزامات الماليّة تثقل كاهلي، فبعتُ اللوحات الفنية الثمينة التي في حوزتي، والخزف الصيني العتيق النادر، وحِصاني، واشتريت سيارة وضعتُها تحت تصرّفها.

لم أرَ نهاية وشيكة تلوح في الأفق. وبينما كان يحدوني أمل قوي في استعادتها، بدأتْ آخر مواردي المالية في النفاد، لكنني لم أرغب في التوقّف. كنت ما يزال عندي مكتبي ونفوذي ومنصبي المرموق، ولكن ما نفع ذلك كله إن لم يكن طوع أمرها؟ لذلك تلاعبتُ في الأموال واختلستُ، لم أعد أخشى "مُحضر المحكمة" وملاحقة الدائنين، لأني كنتُ أخشى ما هو أسوء. لم يذهب مجهودي أدراج الرياح، فقد تخلّتْ عن عشيقها الثاني وعلمتُ أنها لن تتخذ عشيقًا جديدًا وأنها ستعود إليّ، وبالفعل عادتْ إليَّ، بمعنى أنها سافرتْ إلى سويسرا وأشارتْ إليَّ بأن أسافر وراءها.

في صباح اليوم التالي تقدّمتُ بطلبٍ للحصول على إجازة، وبدلًا من الموافقة على طلبي صدر أمر بالقبض عليَّ بتهمة التزوير في أوراقٍ رسمية واختلاس المال العام. من فضلك لا تقل شيئًا، هذا غير ضروري، أعرف كل ما ستقوله مسبقًا. لكن هل تعلم أن الفضيحة والعقاب كانت أيضًا لونًا من اللهب والشغف والمكافأة على الحبّ؟ هل تفهم ذلك أيها العاشق الشاب؟ على أي حال لقد أخبرتكَ بقصة خرافية عزيزي الشاب.

لستُ الرجل الذي عاش وجرَّب كل هذا. أنا مجرد كاتب حسابات مسكين، سألكَ أن تدعوه إلى زجاجة نبيذ.

والآن أريد العودة إلى منزلي. ولكن، ابقَ هنا. سأمشي بمفردي. لا تمشِ ورائي من فضلك".

(1907)

عن روح الأطفال

في بعض الأحيان نُقدِم على ارتكاب أفعال، فندخل ونخرج ونفعل هذا وذاك بسهولةٍ وخلوّ بالٍ وعدم التزام، لكن الأمور ربما تبدو مختلفة تمامًا. وفي أحيان أخرى، وفي أوقات أخرى، يبدو كل شيءٍ مُلزِمًا وشاقًا، ويبدو كل نَفَس نلفظه محكومًا بقوى عُليا، فيبدو ثقيلًا في خروجه تحت وطأة القَدَر. إن أفعال حياتنا التي نَصِفُها "بالخير" ونحكي عنها بسهولة تندرج جميعها تقريبًا تحت الصنف الأول، أي صنف الأفعال التي سرعان ما ننساها، بينما الأفعال التي نتجشم الجهد والمشقة لنحكيها، لا تسقط من ذاكرتنا أبدًا، لأنها الأفعال التي تمسّنا أكثر من غيرها، الأفعال التي تُلقي بظلالها على أيام حياتنا كلها.

للدخول إلى بيت أبينا الواسع المشرق الذي كان يقع في شارعٍ تغمره أشعة الشمس، كنا نجتاز بوابة عالية، لكن سرعان ما كانت تغمرنا البرودة ويطوقنا شفق الفجر وعطانة الهواء الرطب، بعدها تستقبلكَ بصمتٍ مهيب صالةٌ عالية الأسقف معتمة الإضاءة، أما البلاط فكان مصنوعًا من الحجر الرملي الأحمر، وكان يرتفع ارتفاعًا بسيطًا كلما مشيتَ ليقود خطاك ناحية الدَرَج الذي كانت بداية درجاته مدفونة وسط الظلام.

طالما دخلتُ من هذه البوابة العالية آلاف مرات ولم أنتبه يومًا إلى البوابة ولا الممرّ ولا البلاط ولا درجات السُلم، رغم ذلك كان دخولي منها على الدوام انتقالًا إلى عالمٍ آخر، إلى "عالـمنا".

كانت الصالة معبقة على الدوام برائحة الحجر الرملي، وكانت خافتة الإضاءة، عالية الارتفاع، وفي نهايتها يستقرُّ الدَرَج الذي كان يصعد بنا من برودة الصالة القاتمة إلى النور والهدوء المشرق. لكن القاعـة المعتمة والشفق المهيب كانا يأتيان دائمًا أولًا: فيهما شيء من روح الأب، شيء منٍ الكرامة والسـلطة، شيء من العقاب وتأنيب الضمير. تـمـرُّ ضاحكا من البوابة ولآلاف المرات، وفي أحيانٍ أخرى تمرُّ منها محطَم الفؤاد، ممزقًا إلى أشلاءٍ صغيرة، مملوءًا بالخوف، وتهرع باحثًا عن درجات السُلَم التي ستحرّرك.

ذات مرة عندما كنتُ في الحادية عشرة عدتُ من المدرسة إلى منزلي في واحدٍ من الأيام التي كان القـدر يقف متربصًا في إحدى الزوايا التي تحدث فيها الأشياء بسهولة. في مثل هذه الأيام ينعكس كل اضطرابٍ وكل ارتباكٍ داخل أرواحنا على المحيط الذي نحيا فيه ويُشوّه هيئته. تعتصر قلوبنا مشاعر عدم الارتياح والخوف، فنبحثُ ونعثر على أسباب هذه المشاعر المفترضة خارجنا، فنرى العالَم مُنظَمًا تنظيمًا رديئًا، ونصطدم بشتى صنوف المقاومة أينما ذهبنا. كان الأمـر أشبه بذلك يومها. منذ الصباح الباكر لذلك اليوم حاصرتني مشاعر غَـم لا أعلم مصدرها، ربما كانت مصدرها أحلام الليلة الفائتة. راودنيَ شعورٌ بتأنيب الضمير رغم أني لم أكن قد اقترفتُ شيئًا. كانت ملامح وجـه أبي طافحة بتعبيرٍ مُـؤنِّـبٍ معاتِب. كان حليب الفطور فاترًا وشهيًّا.

مضت الأمور في المدرسة على ما يُرام، لكن كل شيءٍ من حولي بدا مغموسًا بمذاقٍ بائس، ميت، مُثبِّطٍ للعزيمة، واندمجتْ كل هذه الأشياء متحولةً إلى شعورٍ مألوف لدي بالعجز واليأس، إلى شعورٍ يقول إن الوقت سرمدي، وإننا سنبقى صغارًا إلى الأبد، عاجزين إلى الأبد ونحن في قبضة هذه المدرسة السخيفة النتنة، سنبقى فيها سنوات وراء الأخرى، وإن الحياة بغيضة بلا معنى.

يضاف إلى ذلك أنني شعرت باستياءٍ بالغ من صديقي ذلك اليوم، كنت قد عقدت صداقة قبل فترة وجيزة مع أوسكار فيبر، وهو ابن سائق جرّارات، ولا أعرف ما الذي جذبني إلى صداقته. كان يتفاخر مزهوًا بأن والده يجني سبعة ماركات يوميًا، فأسرعتُ بردٍ مرتجلٍ قائلًا إن والدي يجني أربعة عشر ماركًا يوميًا. كانت بداية الصداقة أنه ذُهل لِما قلتُه من دون إبداء اعتراض.

بعدها بأيام اتفقتُ مع أوسكار على إنشاء صندوق توفير مشترك لشراء مسدس في وقتٍ لاحق. كان المسدس معروضًا في واجهة متجر بائع أدوات معدنية، كان سلاحًا ضخمًا ذا ماسورتيْن زرقاوتين لامعتيْن. راح فيبر يحسبها أمامي قائلًا إننا لو أحسنّا الادخار لفترة من الوقت سنتمكن من اقتناء المسدس، فالأموال دائمًا متاحة. قال إنه يحصل أحيانًا على عشرة سنتات عند خروجه للنزهة، وأحيانًا يتقاضى البقشيش، وأحيانًا يتعثر المرء على المال في الأزقة والحارات، أو على أشياء ذات قيمة مادية مثل حدوات الخيول أو قطع الرصاص وما إلى ذلك من الأغراض التي يُمكن بيعها مقابل مبلغٍ جيّد. بادَر على الفور بوضع عشرة بنسات فأقنعني بإمكانية

تحقيق خطتنا. وفي ظهيرة أحد الأيام، وبينما أدلف إلى صالة منزلنا وإذ تهبُّ على وجهي الذكريات الكئيبة لآلاف الأشياء الكريهة الباعثة على الانزعاج ونظام العالم المختلّ، انشغل ذهني بالتفكير في أوسكار فيبر مجددًا.

شعرتُ بنفورٍ ناحيته على الرغم من تعاطفي مع ملامح وجهه الطيب الذي ذكّرني بوجه المرأة التي تغسل الثياب. لم تكن شخصيته هي ما أسرت انتباهي إليه، بل جذبني شيء آخر، أستطيع أن أقول: طبقته الاجتماعية، كان شيئًا يشاطر فيه أغلب الصبيان الذين ينتمون إلى طريقة حياته وطبقته الاجتماعية: فن الحياة بوقاحة، التمترس وراء جلدٍ سميك في مواجهة الأخطار وألوان الإذلال، درايته الواسعة بشؤون الحياة العملية الصغيرة؛ بالمال، والمحلات والورش والسِلع وأسعارها، وبعالم المطبخ والملابس وما إلى ذلك. كان هؤلاء الصبيان على شاكلة أوسكار فيبر، الذين لم يكن يؤلمهم الضَرب في المدرسة، والذين كانوا أقارب وأصدقاء الخَدَم والسائقين وعاملات المصانع. أقول كان هؤلاء الصبية أرسخَ قدمًا في الحياة مني. كانوا أشدّ نضجًا، وكانوا على دراية بكم يجني آباؤهم، ومن المؤكد أنهم كانوا على درايةٍ بأشياءٍ كثيرة أخرى لا أعلم عنها شيئًا. كانوا يضحكون على النكات والتعابير التي لا أقدر على فهمها، وكانوا قادرين على الضحك بطريقةٍ لم يكن من المسموح لي الضحك بها. كانوا يضحكون بطريقةٍ بذيئة وفجّة، طريقة "البالغين"، الطريقة التي يضحك بها الرجال.

لم أستفد شيئًا من أني كنت أفوقهم دراسيًا، وأنني كنتُ أعرف أكثر منهم، ولم يكن ذا فائدة أنني كنت أرتدي ملابس أفضل ولا أني أُصفِّف شعري بطريقةٍ أكثر جاذبية. على العكس، كانت تلك الاختلافات تصبّ في مصلحتهم. فقد بدا لي أن الصِبْيَة من نوعية أوسكار فيبر في مقدورهم الدخول بسهولة ويسر إلى عالم "ضوء الفجر" و"وضوء المغامرات"، بينما كان هذا العالم نفسه موصدًا أمامي، وبواباته منيعة على الاختراق بسبب النضج، ومقاعد الدراسة والامتحانات والتربية.

من المؤكد أن هؤلاء الصبيان كانوا يعثرون على حدوات الخيول وعلى المال وقطع الرصاص في أوقات تسكعهم في الشوارع، وكانوا يتقاضون أجرًا على أداء المشاوير للغير، وكانوا يحصلون على هدايا من المحلات، وكانت أمورهم تسير على ما يرام.

انتابني شعورٌ غامض بأن سبب صداقتي بأوسكار ومسألة تأسيس صندوق ادخار مشترك لم يكن إلا شوقًا جامحًا إلى الولوج إلى هذا العالَم. لم يجذبني في أوسكار إلا سرِّه الكبير، الذي استطاع بفضله أن يكون أقرب إلى البالغين والكبار مني إليهم، إذ كان الصبي منغمسًا في عالم مكشوفٍ وعارٍ وأرسخ من عالم الأحلام والأماني الذي كنت أحيا فيه. أحسستُ أن أوسكار سيخدعني، وأني لن أقدر على أن أنتزع سرّه الكبير ولا أن أسلبه مفتاحه السحري لولوج الحياة.

تركني للتوّ من لحظات، وعلمتُ أنه ذاهب إلى المنزل بخطواتٍ واسعة متأنية، مستمتعًا وهو يصفّر، لا تعكّر صفوه مشاعر حنين ولا هواجس. كان عندما يقابل من يصادقهن من الخادمات وعاملات

المصانع ويتعرف على مسار حياتهن الغامضة، وربما الرائعة، بل وربما الإجرامية، لم يكن يراها بهذا القَدر من الغموض والسرّية ولا الخطورة ولا الجموح ولا التشويق الذي كنت أراه فيهنّ، بل كان يراها حياة طبيعية مألوفة معتادة مثل حياة البطّ السابح في المياه. كانت الأمور تجري هكذا، بينما كنت أنا على الجانب المقابل، واقفًا على الدوام بالخارج أمام الباب، وحيدًا متحيرًا، مليئًا بالهواجس، خاليًا من اليقين.

بوجهٍ عام كانت الحياة في ذلك اليوم مرة أخرى طافحة بالسخافة والقنوط، كان طعم اليوم أقرب إلى يوم الاثنين على الرغم من أننا كنا يوم السبت. كان اليوم أطول بثلاث مرات وأسخف بثلاث مرات عن غيره من بقية الأيام، كانت الحياة آنذاك ملعونة وبغيضة، كاذبة ومقرفة. كان الكِبار يتصرفون كما لو كان العالم في أكمل صوره، وكانوا يتصرفون كما لو كانوا أنصاف آلهة، ولم نكن نحن الصبيان سوى حثالة وسقط متاع. آه من هؤلاء المدرّسين!

كان المرء يشعر في قرارة نفسه بالسعي والطموح، ويستبق الخير بصدقٍ وشغف، سواء أكان الخير المقصود تعلّم الأفعال الشاذة في اللغة الإغريقية أم الحفاظ على نظافة ملابسه، وسواء أكان الخير المقصود طاعة الوالدين، أم تحمّل الآلام والمُحبِطات بصمتٍ وبطولة. نعم في كل مرة كنا ننهض بمشاعر مفعمة بالتوقّد والورع، مكرّسين أنفسنا إلى الله، سائرين في الطريق المثالي النبيل إلى السموّ الروحي، ممارسين الفضائل، مُتحمّلين بصمتٍ ما يحيط بنا من أذى، مُسدين العون والمساعدة إلى الآخرين، أوه! ولكن في

كل مرة ودائمًا وأبدًا كانت تبقى ثمة قفزة، محاولة، رفرفة قصيرة الأجل، دائمًا وأبدًا كان يحدث شيء بعد بضعة أيام أو بعد بضع ساعات ما كان له أن يجري أبدًا! يجري حدث بائس ومُقبض ومخز، فلا يلبث الإنسان إلا أن يسقط فجأة سقوطًا لا مناص عنه من قلبِ أكثر القرارات والوعود نُبلًا وصلابةً إلى عتمة الخطيئة والقسوة، إلى الحياة العادية والأشياء المعتادة.

لماذا كان الأمر هكذا؟ أقصد لماذا كان يدرك الإنسان الجمالَ وصدق النوايا الحسنة إدراكًا عميقًا ويشعر بها في قلبه شعورًا قويًا رغم أن كل مظاهر الحياة المحيطة كانت طافحة على الدوام برائحة المبتذل والعادي، وأنها سمحَتْ دائمًا بانتصار التافه والمبتذل؟ وكيف يحدث أن يضمّ المرء ركبتيه ضارعًا بخشوع في السرير صباحًا أو يجثو مساءً أمام الشموع، مُقسِمًا بأغلظ الأيمان على سلوك طريق الخير والنور السماوي، داعيًا الربّ، ومبتعدًا عن كل رذيلة، وبعدها -ربما بعد ساعات قليلة فقط- يحنث باليمين الذي أقسَمَه، سواء عبر الانغماس في المزاح الخبيث، أو إعارة سمعه إلى نكتة خليعة من تلميذ دراسة أحمق؟

لماذ تمضي الأمور هكذا؟ وهل تبدو الأمور مختلفة عند الآخرين؟ هل كان الأبطال الرومان والإغريق والفرسان والمسيحيون الأوائل بشرًا مختلفين عني؟ هل كانوا أفضل وأشد اكتمالًا مني؟ ألم تكن تحركهم غرائز خبيثة؟ هل وُهِبوا أعضاءَ أفتقِرُ إليها كانت تحول بينهم وبين السقوط من سماء الفضيلة إلى جُبّ ابتذال الحياة اليومية، ومن السموّ الروحاني إلى التقصير والبؤس؟

هل كان هؤلاء الأبطال والقديسون يعرفون الخطيئة الأصلية؟ وهل كان المقدّس والسامي والنبيل مقصورًا على فئة قليلة نادرة مُصطفاة من البشر؟ ولو كان الأمر هكذا ولو لم أكن أنا من المصطفين الأخيار، لماذا كنت أجد في نفسي إذن هذا الدافع القوي ناحية كل ما هو جميل ونبيل؟ ولماذا كنت أشعر في نفسي هذا الشوق العارم إلى النقاء والخير والفضيلة؟ أليس هذا لونًا من الاستهزاء؟ أيُعقل أن يوجد في عالم الله رجل أو حتى صبي يطوي في صدره الغرائز السامية والمدنسَة في آنٍ واحد ويضطرُّ إلى المعاناة والسقوط في اليأس كرجلٍ بائس غريب لا لشيءٍ إلا لإمتاع الربّ الذي يقف متفرجًا؟

ألم يكن من الأجدر أن تُـلـقـى تلك الشخصية البائسة إلى سلة القمامة؟ ألا يكون الإله -والأمر هكذا- ليس إلا وحشًا عابثًا مهرجًا أحمق مثيرًا للغثيان؟ وبينما كنت غارقًا في تلكم الأفكار، مغمورًا بمسحة من شهوة التمرّد على ما حولي، أخذتني رعدة قوية عقابًا على هذا التجديف في حق الله! فطلبتُ الغفران وأنا أضرع.

وبعد انقضاء ثلاثين سنة، كم أرى بوضوح الآن المنزل ذا الدَرَج أمام عيني مرة أخرى، بنوافذه العالية المُشرَعة على الجدار المجاور مانحةً نزرًا يسيرًا من الضوء، وسلالم الدَرَج المصنوعة من خشب التنوب، المطلوة باللون الأبيض، والأرضيات والدرابزين الخشبي الصلب الذي صقَلَته آلاف الخطوات التي خطوتها فوقه.

هكذا تقف مرحلة الطفولة على مسافةٍ مني، وهكذا تبدو في عيني غامضة الملامح، وتبدو في مُجملها مثل الحكايات الخرافية. رغم ذلك ما أزال قادرًا على تـذكَر كل ما كان يعتمل بداخلي من مشاعر الألم والانقسام الذي شعرتُ به وأنا في غمرة أشد لحظات السعادة.

كانت كل هذا المشاعر رابضة في قلب ذلك الطفل آنذاك كما كانت على الدوام: مشاعر فقدان الثقة بالنفس، التأرجح بين تقدير الذات وبين الحطّ منها، متراوحةً بين المثالية التي تحتقر العالَم المادي وبين الحواس التي تشتهي هذا العالم، ومثلما كنتُ ألمس آنذاك في ملامح شخصيتي شيئًا من المرض العضال وشيئًا من التميّز، ها أنا ذا الآن أومن أن الله إنما أراد أن يقودني إلى اختبار العزلة وإلى تـجربة العُمق الروحاني من خلال المشي في طريق الآلام، بينما أرى في أوقاتٍ أخرى في كل تلك السمات الشخصية علامةً على عوارٍ رخيص في شخصيتي، علامةً على إصابتي بالعصاب الذي يجرجره آلاف البشر وراءهم في حياتهم.

ولو أني أردتُ ردَّ كل هذه المشاعر وصراعها المؤلم إلى شعورٍ أساسيّ واحد، ومنحها اسمًا جامعًا مانعًا لما وجدتُ كلمةً أشدّ تعبيرًا عن ذلك من كلمة الخوف. نعم الخوف، الخوف وافتقاد الشعور بالأمان الذي شعرت به في أوقات السعادة في طفولتي: الخوف من العقاب، والخوف من تأنيب الضمير، الخوف من تقلبات روحي التي كنت أشعر بها آثمة مكبوتة.

حتى في هذا الساعة التي أحكي لكم عنها، داهمني شعور قوي بالخوف لمّا اقتربتُ من الباب الزجاجي لبئر السلم، بدأ الأمر بتقلصاتٍ أسفل بطني تعاظم مداها لتصل إلى غصّة في حلقي، ثم ما لبث أن تحول إلى الشعور بالغثيان. شعرتُ دائمًا في تلك اللحظات -مثلما أشعر الآن- بنوعٍ من الإحراج المؤلم، والارتياب في كل من يراقبني، ورغبة ملحّة في البقاء وحيدًا والاختباء عن أعين الناس.

مملوءًا بهذا الشعور البشع اللعين مضيتُ إلى ردهة المنزل ومنها إلى غرفة المعيشة. شعرتُ أن ساعة النحس اقتربت، وأن أمرًا جللًا سيقع، كما استشعرتُ نوعًا من المشاعر السلبية الهائلة كما يستشعر البارامتر تغير ضغط الهواء. يا السماء، ها قد جاء ما هو عصي على القول، وها هو الشيطان يتسلل عبر أرجاء البيت، وها هي الخطيئة الأصلية تنشب أظفارها في سويداء القلب، وخلف هذا الجدار تقبع روح هائلة خفية: روح الأب والقاضي الديّان.

حتى هذه اللحظة لم أكن قد تأكدّت من شيء، ولم يزد الأمر عن كونه هاجسًا وحَدْسًا وشعورًا بالقلق. في مثل هذه المواقف يكون الحل الأمثل هو أن تتمارض وأن تتقيأ وتلزم الفراش، فتمرّ الأمور من دون مشكلات. جاءت أمي وشقيقتي واحتسيتُ الشاي وشعرتُ أني محوط بكافة أوجه الرعاية، وأن في مقدوري النوم أو البكاء، لأستيقظَ بعدها موفور الصحة سعيدًا، في عالمٍ مشرق، مختلف كليًّا.

لم تكن أمي في غرفة المعيشة، وكانتْ الخادمة وحدها في المطبخ. قررتُ الصعود إلى غرفة مكتب أبي، وكان الوصول إليها يمـرّ عبر دَرَجٍ ضيق. ورغم خوفي من أبي رأيتُ ألا ضير من اللجوء

إليه، وأحسستُ أن لديه ما يقدّمه إليَّ. صحيح أنه كان من الأسهل التماس المواساة من أمي، إلا أن المواساة من ناحية الأب بدتْ أكثر قيمة، لأنها تعني إبرام سلامٍ مع الضمير، وتعني مصالحة، وتعني تحالفًا جديدًا مع قوى الخير.

في أعقاب ظهوري بمظهرٍ غير مشرّف أمامه، وبعد التحقيق والاعتراف بذنبي ونيل العقوبة، غالبًا ما كنت أغادر غرفة أبي نظيفًا طاهر الذيل، صحيح بعد أن يكون قد نالني التقريع والعقاب، لكنني أكون حينذاك ممتلئًا بقرارات جديدة، يقويها تحالف الرجل القوي المعترف بذنبه ضد الشيطان الشرير.

وهكذا قررت الذهاب إلى أبي وإخباره بأني مريض، فصعدتُ درجات السُلم الصغير الذي يفضي إلى غرفة مكتبه، وكانت أهمية هذا السُلم الصغير بما يحمله من رائحة ورق الحائط أكبر بكثير من سُلم المنزل الرئيس.

كان هذا السُلم وما تصدره درجاته الخشبية من أزيز أجوف خفيف، طريقًا مهمًا وبوابة إلى مواجهة القَدَر. عبر درجات هذا السُلم قطعت العديد من الخطوات المهمة، مُجترًا مئات المرات مشاعر الخوف وتأنيب الضمير والعناد والحنق.

كانت أمي وبقية الأطفال جالسين بالأسفل، حيث يهبّ هواء لطيف، أما هنا بالأعلى فمقرّ إقامة السلطة العليا والروح المقدسة، هنا المحكمة وهنا قدس الأقداس، هنا مملكة الأب. وبشيءٍ من الارتباك كما هو الحال دائمًا أدرتُ مقبض الباب ذا الطراز العتيق إلى الأسفل، وفتحتُ الباب قليلًا، فهبَّتْ في وجهي رائحة غرفة

مكتب أبي، رائحة الحبر وعبق الكتب الذي خفّفَ منه تيار الهواء القادم من النوافذ نصف المفتوحة، الستائر البيضاء النظيفة، نسمة ضائعة من رائحة ماء كولونيا وتفاحة فوق المكتب، إلا أنني وجدتُ الغرفة خالية.

دلفتُ إلى الغرفة مملوءًا بشعورٍ يمزج بين خيبة الأمل والراحة. كتمتُ صوت خطواتي ومشيت على أطراف الأصابع مثلما كنا نفعل أحيانًا عندما يكون والدُنا نائمًا أو مصابًا بصداع. وما إن شعرتُ بوقع خطوات قدَمَي حتى أحسستُ بتصاعد دقات قلبي، وتملكني شعور متزايد بخوفٍ ضاغط وصل إلى أسفل بطني وحلقي.

واصلتُ التقدم زاحفًا خائفًا، خطوة بخطوة، وهكذا وجدتُ نفسي لا مجرد زائر خفيف يلتمس زيارة سريعة، وإنما دخيل متسلل. كنت قد تسللت غير ذات مرة إلى غرفتَي أبي في غيابه، واسترقتُ السمع إلى أسرار مملكته السرية وتفحصتها، بل إني سرقتُ منها مرتين شيئًا، فسرعان ما اجتحاتني هذه الذكرى واستغرقتني فعرفتُ في التو واللحظة أن المصيبة قد حلَّتْ، وأنني ارتكبتُ شيئًا محظورًا ومؤثّمًا.

لم تخطر بذهني فكرة الهروب، بل فكّرتُ في ترك كل شيء والفرار ركضًا، وهبوط درجات السُلّم إلى غرفتي أو الحديقة، لكن أدركت أني لن أفعل ذلك، أو أني لن أقوى على فعل ذلك. تمنّيت من أعماق قلبي أن يأتي أبي من الغرفة المجاورة ويدلف إلى الحجرة ويكسر القَيْد الرهيب الذي شدّني إلى هنا وقيّدني.

آه لو جاء الآن! آه لو جاء قبل فوات الأوان!

سعلتُ لأنبّهَهُ إلى وجودي، فلم ألقَ ردًا.

هتفتُ بصوتٍ خفيض: "بابا".

كانت الغرفة غارقة في الصمت، والكتب المرصوصة فوق رفوف الخزانة أشدّ صمتًا. تحرّكَتْ إحدى ضلفتي الشباك بفعل الريح، وألقتْ بانعكاسٍ سريع لأشعة الشمس فوق أرضية الحجرة. لم يأتِ أحد ليخلّصني ولم تكن أمامي الفرصة لأفعل شيئًا آخر سوى تنفيذ إرادة الشياطين.

أصابتني مشاعر الإثم بانقباضٍ في المعدة، وغزَتْ البرودة أطرافي، وارتعدت روحي من الخوف، لمْ أكن أعرف لحظتها ما ينبغي عليَّ فعله. كل ما كنت أعرفه أن نذر الشرّ لائحة في الأفق. كنت ساعتها أمام مكتب أبي، فسحبتُ كتابًا وجعلت أقرأ العنوان الإنجليزي، لكني لم أفهم شيئًا. كنت أكره اللغة الإنجليزية، وكان الأب يتحدث مع الأم بالإنجليزية لو أراد ألا نفهم شيئًا أو لو نشبت بينهما مشاجرة.

داخل طبق فوق سطح المكتب وُضعت كافة أغراضه: خِلّة الأسنان، والأقلام المعدنية والدبابيس، أخذتُ قلميْن معدنيين ودسستُهما في جيبي، والله أعلم لمَ فعلت ذلك، فلم أكن أحتاج إليهما، ولم تكن تنقصني الأقلام؛ فعلتُ ذلك رضوخًا للإكراه الذي كان يملك زمام أمري، الإكراه الذي كان يحضّني على اقتراف الشرّ وإيذاء نفسي وإثقال روحي بالذنب. رحتُ أتفحص أوراق أبي ولمحتُ خطابًا ما يزال في بدايته، فشرعت في قراءة الكلمات المكتوبة:" أمورنا وأمور الأولاد، والحمد لله، تسير على ما يُرام". وكانت الحروف اللاتينية التي سطرها بخطّهِ تُحدّق فيَّ مثلما تحدّق الأعين.

بعدها تسللتُ بهدوءٍ وخفَة حتى وصلتُ إلى غرفة النوم، كان سريره المصنوع من الحديد منتصبًا وسط الغرفة، وأسفله خفَاه المنزليان البُنيان، ومنديل صغير فوق الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير. استروحتُ أنفاس أبي في الغرفةِ الباردة المشرقة، وارتفعتْ صورة أبي واضحةً أمامي، وتنازعت قلبي مشاعر الرهبة والتمرّد في آنٍ واحد. انتابتني مشاعر كُره لأبي لمدة لحظاتٍ بينما أتذكر بخبثٍ وشماتة منظر رقوده فوق سريره المصنوع من الحديد، ممددًا، فارعَ الطول، بينما استقرت خرقة مُبللة فوق جبينه، مطلقًا التنهدات بين الحين والآخر. خمَّنت أيضًا أن أبي، ذلك الرجل الجبّار، لم يعِش حياةً يسيرة، وأن ذلك الرجل الوقور المبجَّل كان واعيًا هو الآخر بخوفهِ وقلة ثقته بنفسه. ثم سرعان ما تبددت مشاعر الكُره وحلّتْ محلها مشاعر الشفقة والعطف.

في هذه اللحظة كنت قد فتحتُ درج خزانة الملابس. رأيتُ كومة من الملابس وزجاجة ماء الكولونيا المفضلّة عنده، أردتُ أن أشمّها لكن الزجاجة كانت مقفولة بإحكام فأعدتها إلى مكانها، ولمحتُ إلى جانبها علبة معدنية صغيرة تحوِي أقراص استحلاب بطعم العِرقسوس، فالتقمتُ بضعًا منها، فاجتاحتني مشاعر إحباط وخيبة أمل، ممزوجة بفرحةٍ عجيبة، لأن أحدًا لم يعثر عليَّ ولم يضبطني متلبسًا، ثم انتقلتُ إلى النبش في صندوقٍ آخر، مسكونًا بقليلٍ من مشاعر الارتياح وبعزمٍ صادق على إعادة القلمين المعدنيين اللذين أخذتهما.

قلت في نفسي: ربما كان ثمة فرصة للعودة وفرصة للنَدم والتوبة والخَلاص، وربما كانت يد الله أقوى من يد الشيطان والإغواء.

بعدها ألقيتُ نظرة خاطفة على الشق الظاهر بالكاد داخل الدُرج، آه.. في الأرجح كانت مجموعة من الجوارب والقمصان والجرائد القديمة، عندها رادوني الإغواء مجددًا، وشعرتُ -لثوانٍ قليلة- بتقلصات البطن وبنوبة الذعر، وارتعش كفاي، وراح قلبي ينبض بسرعةٍ بالغة. رأيتُ شيئًا راقدًا في قاع وعاءٍ هنديّ أو وعاء عجيب الشكلِ، كان شيئًا أثار دهشتي وأغراني بالاقتراب منه والتفتيش فيه، كان إكليلًا من ثمار التين المجفف المرشوش بالسكر الأبيض.

أخذته بين أناملي فوجدته ثقيلًا بالغ الثِقَل، ثم سرعان ما أخذتُ ثمرتَي تين أو ثلاثًا ورفعت واحدة إلى فمي، ودسستُ الباقي في جيبي، وهكذا لم تكن مشاعر الخوف ولا المغامرة التي أقدمت عليها لتخلو من فائدة. صحيح أني لم أنل الخلاص ولا جوزيتُ بالمواساة على وجودي هنا، لكني فكرت أني لن أغادر خالي الوفاض.

أخذت ثلاث حبّات تين أو أربع من الإكليل الذي كان وزنه قد خفّ قليلًا، واصلت أخذ المزيد ولما امتلأت جيوبي واختفى نصف محتويات الإكليل، رحتُ أعيد ترتيب ثمار التين المتبقية فوق الإكليل ترتيبًا يوحي بعدم اختفاء الكثير منها، ثم أغلقتُ الدرج بسرعةٍ بعد أن أخذتني نوبة رعب مباغتة ولذتُ بالفرار من الغرفتين، هابطًا درجات السلم، قاصدًا غرفتي الصغيرة، التي لبِثت فيها واقفًا متكئًا على مكتبي الصغير المرتفع، وركبتاي تصطكان في رعدةٍ، وأنفاسي تتصاعد بصعوبةٍ بالغة.

بعدها بفترةٍ وجيزة دقَّ جرس المائدة إيذانًا بوجبة الغداء. برأس فارغ من الأفكار، وبنفسٍ طافحة بخيبة الأمل والقرف دسستُ ثمارَ التين داخل كتبي وأخفيتها وراء كتب أخرى، وذهبتُ إلى المائدة.

أمام غرفة الطعام شعرتُ أن يديّ لزجتان فغسلتهما في المطبخ، وفي غرفة الطعام وجدت الجميع جالسًا حول مائدة الطعام، ألقيتُ التحية سريعًا. كان أبي جالسًا يتمتم بصلاة الطعام، فانحنيتُ على طبق الحساء أمامي، لم أشعر بالجوع وكانت كل جرعة تسبب غصّة في حلقي. كانت شقيقاتي يجلسن إلى جواري وأمامهنّ والدّاي، وملامح الجميع تشرق بالنور والبهجة، بينما أنا المُجرم البائس الوحيد الجالس بينهم، وحيدًا، صبيًا فاقدَ الشرف، خائفًا من كل نظرة ودودة، لأن مذاق ثمار التين ما يزال يلوّث فمي.

هل نسيتُ إغلاق غرفة نوم أبي في الطابق الأعلى؟ وماذا عن الأدراج؟ هل أغلقتُها؟

تملّكني البؤس الحقيقي في هذه اللحظة. قررتُ التخلص من حبات التين، عزمتُ على أخذها إلى المدرسة وتوزيعها على أقراني. آه لو اختفتْ حبّات التين هاته! آه لو لم أرها مجددًا!

"لا يبدو أنك على ما يُرام اليوم"، قال أبي.

في هذه اللحظة كان بصري موجّهًا إلى صحني، لكني شعرتُ بنظرات أبي مصوّبة إلى وجهي. لا بُدَّ أنه سيلاحظ الآن، فأبي لا تفوته شاردة ولا واردة أبدًا. لماذا يتعمّد تعذيبي في كل مرة؟ هل يودّ الآن أخذي ليشبعني ضربًا حتى الموت؟

"هل أنت بخير؟".

سمعتُ صوته مجددًا عبر المائدة، لكني كذبتُ وأخبرته أني أعاني من صداع.

"إذن عليك أن تغفو قليلًا بعد الغداء. ماذا لديك من الدروس اليوم بعد الغداء؟".

"لا شيء سوى دروس الجمباز".

"لا بأس من دروس الجمباز، ولكن تناول مزيدًا من الطعام، اجبر نفسك على تناول القليل، ستمرّ الأمور".

تحوّلتُ عنه ببصري. لم تنبس أمي بكلمة، لكني كنت أعرف أنها كانت تحدّق فيَّ. تناولتُ الحساء وازدردتُ بصعوبة قطع اللحم والخضروات، ثم شربت جرعتي ماء. إلا أن شيئًا لم يحدث بعدها. تُركت إلى حال سبيلي. وعندما تمتم أبي في النهاية بصلاة الشكر: "نشكرك يا إلهنا لأنك لطيف ولطفكَ دائم إلى أبد الآبدين"، باعد شعورٌ قوي لاذع بيني وبين الكلمات المشرقة الطاهرة الواثقة كل الجالسين حول المائدة.

كانت كفاي المعقودتان أمام صدري محض كذب، وسلوكي الوَرِع محض تجديف. وعندما نهضت من مقعدي مسّدتْ أمي بكفها على شعري وتركت كفّها للحظات فوق جبيني لتتأكدَ من ارتفاع درجة حرارتي. كم كان ذلك الشعور مريرًا!

أمام خزانة الكتب في غرفتي الصغيرة وقفتُ، لم يكذب حدسي هذا الصباح، وكانت كل الإشارات صحيحة، كان يوم نحسٍ بلا شك، بل أسوء أيام حياتي قاطبة، وليس في مقدور أحد أن يتحمل ما هو أسوء من ذلك.

ولو كُتب على إنسانٍ أن يمرَّ بيوم أسوء من يومي هذا، فالأولى به الانتحار، وتجرّع السمّ، نعم هذا هو الحل الأمثل، بل عليه أن يشنق نفسَه، وأن يؤثر الموت على الحياة. كان كل شيءٍ باطلًا وقبيحًا. وقفتُ وأخذتُ أُفتّش عن حبّات التين المخفية لآكل منها، حبّة وراء الأخرى من دون وعي.

وقع صندوق الادخار في مرمى بصري. كان موضوعًا فوق الرفّ أسفل الكتب، وكان في الأصل صندوق سيجار أحكمتُ إغلاق أركانه بالمسامير، ثم شققتُ طاقة غير مشذبة وسط الغطاء لإدخال العملات المعدنية. كان مقطوعًا قطعًا رديئًا غير مشذب، وكان الشقّ غير مشذّب، وشظايا الخشب ونتوئاته بارزة إلى الخارج، حتى في هذا الأمر كنت فاشلًا، إذ كنت أعرف رفاقًا قادرين على نحت صندوق مماثل بصبرٍ وأناة ومهارة بحيث تبدو أنها مصنوعة على يد نجّارٍ محترف، لكني كنت على الدوام عجولًا، لا أحسن صنع ما في يدي. هكذا كان الحال مع المشغولات الخشبية، ومع المشغولات اليدوية، ومع رسومي، ومع مجموعات الفراشات خاصتي، ومع كل شيءٍ وأي شيء. وها أنا ذا أعاود السرقة، أسوء حالًا عما قبل.

حتى القَلمان المعدنيان ما يزالا في جيبي. لماذا؟ لِم أخذتهما؟ أو لِم اضطررت إلى أخذهما؟

لماذا يضطر الإنسان إلى فعل ما لا يريد؟ لم يكن داخل صندوق الادخار إلا قطعة معدنية واحدة من فئة عشرة سنتات، كانت القطعة التي وضعها أوسكار فيبر، ولم يدخل الصندوق "قرشًا" زيادة. كانت فكرة صندوق التوفير واحدة من أفكاري. كان كل شيءٍ أفعله في

حياتي عديم الفائدة، ومحكوم عليه بالفشل بمجرّد الشروع فيه، كنت أتمنّى أن يأخذ الشيطان صندوق التوفير هذا ولا أراه مرةً ثانية.

كانت الفترة الفاصلة بين تناول طعام الغداء والذهاب إلى المدرسة على الدوام مزعجة وتمرّ بتثاقلٍ غريب. وفي الأيام الحُلوة، الأيام الهادئة اللطيفة المعقولة كانت ثمة ساعة عذبة مُشتهاة، في هذه الساعة إما أني كنت ألزم غرفتي لأطالع كتابًا عن الهند، وإما أن أعود بعد الغداء مباشرة إلى ساحة المدرسة، حيث أقابل بعض أقراني ممن يتحلون بروح المغامرة، فنلعب ونركض ونصرخ ونسخّن عضلات جسدنا حتى يدقّ جرس المدرسة فيعيدنا إلى "الواقع" الذي كنا قد أسقطناه من حساباتنا تمامًا.

لكني في هذا اليوم -من يا ترى كنتَ تودّ أن تلعب معه وتلهي وقتك والشيطان ينزغ صدرك؟- رأيت نذر الشر لائحة من بعيد، ربما لن تصيبني اليوم، ولكن ربما عما قريب.

وعندها سيُحكم القدر خناقه. لم يكن ينقص سوى قدرٍ ضئيل، قدر ضئيل من الخوف والألم وحيرة البال، ثم ينتهي الأمر بذعرٍ هائل يشلّ أطرافي.

في يومٍ من الأيام، سأغرق في الشرّ حتى أذني، سأقترفُ أمرًا مريعًا حاسمَ الأثر من فرط التحدي والغضب الذي يضطرم في أعماقي بسبب تلك الحياة المملوءة بالخوف غير المُحتمل، سأقترف شيئًا مريعًا، لكنه سيحرّرني وسيضع نهاية لخوفي وعذابي. لم يكن هذا الشيء واضح الصورة في ذهني، لكنها كانت خيالات ووساوس قهرية

تموج داخل ذهني المبلبل، أفكار عن ارتكاب جرائم أنتقم بها لنفسي من هذا العالَم، وفي الوقت ذاته أتخلّى عن نفسي وأُدمّرها تدميرًا.

أحيانًا كانت تراودني فكرة إضرام النيران في منزلنا ورؤية ألسنةَ اللهب الهائلة ترفرف بجناحيها خلال الليل، ومشاهدة النيران المشتعلة تأكل المنازل والشوارع، والمدينة بأسرها تحترق تحت السماء الملبدة بالسحب السوداء.

وفي أوقاتٍ أخرى كانت الجريمة التي تراود أحلامي هي الانتقام من أبي وقتله، قتل مع سبق الإصرار والترصّد. لكنني ساعتها ربما كنت سأتصرف مثل ذلك المجرم، أقصد المجرم الحقيقي الوحيد الذي رأيته ذات يوم يُقتاد عبر أزقة مدينتنا. كانوا قد ألقوا القبض على لصٍّ واقتادوه إلى المحكمة، مُكبلًا بالأصفاد وهو يعتمر قبعة مستديرةً، ومن أمامه شرطي ومن ورائي شرطي.

لم يكن هذا الرجل الذي اُقتيدَ عبر الشوارع أمام حشودٍ هائلة من المتفرجين الفضوليين، بينما تُشيّعه آلاف اللعنات والنِكات الخبيثة، من طينة المساكين الفقراء الذي كنا نراهم يُقتادون عبر الشوارع بمعرفة رجال الشرطة، وكانوا في الأغلب مجرد عُمال فقراء يمارسون مهنة التسوّل في الشوارع.

لا، لم يكن ذلكِ الرجل عاملًا مُعدمًا، ولم تكن تبدو على قسماته ملامح المسكنة والخِزي والبكاء، ولم يكن يلوذ بابتسامةٍ حمقاء خجول تستجدي شفقة الناس كما كنت أرى في غيره، بل كان مُجرمًا حقيقيًّا يعتمر برباطة جأش قبعة منبعجة فوق جمجمة تنضح بالتحدي والثبات. كانت ملامحه شاحبة، وكان يشيّع الجميع

بابتسامة هادئة محتقِرة، وكان يرى الحشود التي كانت تسبّه، ويبصق عليه مجموعة من الرعاع الأوباش.

فرأيت نفسي أصيح:" ها هو في قبضتكم! علقّوه في المشنقة!".

لكني سرعان ما لاحظت مِشيته الأبيّة المزهوّة بنفسها، ورأيت كيف كان يمدّ يديه المقيدتين في الأغلال أمامه، معتمرًا قبعته بثباتٍ وكأنها تاج ملكي يعتلي رأسه القاسية الشريرة، ورأيته كيف كان يبتسم، عندها لزمتُ الصمت.

سأفعل مثل هذا المجرم وأبتسمُ برأسٍ مرفوعة ثابتة وأنا أُقتاد إلى قاعة المحكمة، بينما يتزاحم الناس من حولي وهم يصرخون في وجهي بسخرية، عندها لن أقول "نعم" ولن أقول "لا"، فقط سألزم الصمت وسأرمق الجميع بنظرة احتقار.

وعندما يُنفَّذ بحقي حكم الإعدام، وأنتقل إلى السماء لأمثُلَ بين يدي الحاكم الديّان الأبدي، فلن أنحني أبدًا ولن أخضع لأمره. لا، لن أفعلها حتى لو حفَّتْ جيوشُ الملائكة عرش الحاكمَ الديان، وحتى لو فاضتْ منه كل قداسة وكرامة. أتمنى أن يطردني من رحمته، لن أطلب الصفح، ولن أذلّ نفسي، ولن أطلب منه العفو والغفران، ولن أبدي ذرة نَدم على شيء. ولو سألني: "هل فعلتَ هذا وذلك؟"، فسأصرخ: "نعم فعلت ذلك، بل وفعلت أكثر من ذلك، وكان من الصواب أن أفعل ذلك، ولو كان الأمر بيدي لعاودت ما فعلت، لقد قتلتُ وأحرقت البيوت لأجل المتعة ولأجل أن أسخر منكَ وأضايقك، نعم لأني أكرهكَ، لقد أذقتني صنوف العذاب والإساءة، وسننتَ قوانين لا يقوى أحد على تنفيذها، وحرّضتَ الكِبار على إفساد حياتنا، نحن الشباب".

آه لو حالفني الحظ واستطعت صوغ هذا الكلام صوغًا واضحًا في ذهني، آه لو آمنت حقًّا أن في مقدوري فعل ذلك والنطق به. إلا أنني سرعان ما شعرت بالدوار للحظة فعاودتني الشكوك على الفور.

ألن يصيبني الوهن؟ هل سأخاف وأستسلم؟ وهل لو فعلتُ ما تُمليه عليّ رغبتي المتحدية ألن يجد الربّ طريقًا ليصفح عني؟ ألن يتجاوزني؟ ألن يجد حيلة كما يجد الكِبار والرجال الأقوياء حيلة في إحراز الفوز والنصر في نهاية المطاف؟

قلت في نفسي: ألن يفلح في إلحاق العار بك وألا يأخذ كلامك على محمل الجد ويُهينكَ تحت قناع الإحسان اللعين؟ من المؤكد أن الأمر سينتهي على هذا النحو. راحتْ خيالاتي تتراوح ذهابًا وإيابًا، فتنتصر لي تارة، وتنتصر للربّ تارة أخرى، ترفعني إلى مرتبة المجرم العتيد تارة، وتهوي بي إلى هاوية الطفل الضعيف تارة أخرى.

وقفتُ قبالة النافذة ونظرت إلى الفناء الخلفي الصغير للمنزل المجاور، حيث كانت أعمدة السقالات متكئة على الحائط، بينما لاحت رقعة صغيرة مزروعة بالخضراوات وسط الحديقة. ووسط سكون وقت ما بعد الظهيرة إذ بي أسمع فجأة دقة ساعة ثابتة رصينة، ثم دقّت مرة ثانية. كانت الساعة الثانية وها قد عُدتُ من مخاوف أحلامي إلى مخاوف أرض الواقع.

وها هي الآن ستبدأ حصة الألعاب في الصالة الرياضية، وحتى لو طرت على بساط الريح وهبطت على أرض صالة الألعاب الرياضية سأكون حينها قد وصلت متأخرًا.

يا لحظي العاثر مجددًا! فبعد غدٍ سأتلقّى نوبة التوبيخ والعقاب. من الأفضل ألا أذهب إلى هناك مطلقًا، إذ لم يكن ثمة مجال لاستدراك الأمر، وربما يشفع لي اعتذار وجيه ومهذّب ومقبول، لكن لم يكن في مقدوري حينذاك التفكير في عذرٍ واحد، وبغض النظر عن مدى براعة مُدرّسينا في تعليمنا الكذب لم أستطع ساعتها الكذب والاختلاق والتوليف. وكان من الأفضل التغيّب عن الحصة كليًا. ما الضير في إضافة مصيبة صغيرة إلى المصيبة الكبرى؟!

لكن رنين الساعة أيقظني وشلَّ خيالي. ألمَّ بي فجأة ضعفٌ بالغ، وشعرتُ أن حجرتي الصغيرة تحدّق فيَّ تحديقًا يفوق الواقع: المكتب، الصور، الكتب، كل شيء مشحون بوطأة الواقع القاسي، تحولت كل نداءات العالم الذي اضطررتُ للعيش فيه إلى أصوات معادِية ومنذِرة بالخطر.

كيف ذلك؟ ألم أتغيّب عن حصة التربية الرياضية؟ ألم أسرق سرقة بائسة؟ ألم أدسّ ثمار التين المسروقة بين أرفف الكُتب، إن لم أكن قد أكلتها كلها بالفعل؟

فيمَ يهمني إذًا اللص والرب ويوم القيامة؟ كل شيءٍ بأوانه. فكّرتُ: في هذه اللحظة يُمكنهم اكتشاف الجريمة التي اقترفتُها، وربما تكون قد اكتُشفت بالفعل، وربما يكون أبي الآن قد فتح الدرج واكتشف فعلتي، ويقف الآن حانقًا ثائرًا، مفكِرًا كيف سيحاكمني.

يا إلهي! ربما يكون أبي في طريقه إليّ الآن، ولو لم أهرب على الفور سأراه واقفًا في اللحظة التالية بوجهه الطافح بالجدية، يرمقني بعينين من وراء نظارته السميكة، فمن المؤكد أنه عرف أني السارق، فلا لصَّ سواي في هذا المنزل، وشقيقاتي لا يأتين بهذه الفعلة أبدًا.

ولكن لِمَ يُخبّئ أبي ثمار التين هاته في خزانة ذات أدراج؟

كنت قد غادرت غرفتي الصغيرة وشققت طريقي عبر الباب الخلفي والحديقة. كانت الحدائق والمروج ناضرة الخضرة تحت أشعة الشمس الساطعة، والفراشات ترفرف على جانبي المروج، إلا أن كل شيءٍ بدا الآن فظيعًا ومُنذرًا بالخطر، بل أسوء درجة مما كانت عليه الأمور في الصباح، كنت أشعر بذلك، ورغم هذا كنت أعتقد أنني لم أشعر بهذه الدرجة من الألم. تساءلتُ: كيف كان كل شيءٍ ينظر إليَّ نظرة طبيعية وبضميرٍ مستريح، بدايةً من برج البلدة والكنيسة والمروج والشوارع وصولًا إلى أوراق العشب والفراشات.

كنت أعرف ذلك الشعور؛ شعور أن يتجوّل المرء في المنطقة التي اعتاد التجوّلَ فيها مملوءًا بشعور الذنب وتأنيب الضمير. الآن يمكن لأكثر الفراشات نُدرة أن ترفرف وتحطّ عند قدمي، لكن ذلك لم يكن شيئًا بالنسبة لي، لم يكن ليمتعني ولا ليجذبني ولا ليواسي قلبي.

الآن يمكن أن تقترب مني أغصان شجرة الكرز العتيقة، ولكن لا قيمة لذلك ولا سعادة فيه! لم يكن أمامي من سبيل الآن إلا الهروب؛ الهروب من أبي ومن العقوبة ومن ذاتي ومن تأنيب ضميري، الهروب مثل حائرٍ بائر، الهروب حتى يقع ما لا مفرّ منه ولا دافع له.

ركضتُ مدفوعًا بمشاعر مضطربة، قاصدًا أطراف الغابة، ومن منطقة "آيشينبيرج" إلى منطقة "هوفموله"، قاطعًا جسر المشاة سيرًا على قدمَي، ثم منتقِلًا إلى الجانب الآخر صعودًا مرارًا وتكرارًا عبر الغابة. كان هذا هو المكان الذي أقمنا فيه مخيَّمًا هنديًا ذات مرة. وكان المكان الذي احتفلت فيه أمّنا، في أثناء سفر أبينا السنة الماضية بعيد الفصح، وكانت تُخفي البيض في أحراش الغابة وبين الطحالب.

وفي هذا المكان بنيتُ ذات مرة مع أبناء عمومتي قلعة في أثناء الإجازة، وكان نصفها ما يزال قائمًا لم يتهدّم. بقايا الماضي ما تزال تسكن الأرجاء كلها، وثمة مرايا في كل مكانٍ أنظر عبرها إلى شخصٍ آخر غير الذي أنا عليه اليوم.

أقول في نفسي: هل عشت كل ذلك؟ هل كنت سعيدًا هكذا، راضيًا، ممتنًا لما أنا فيه، رقيق السلوك مع أمي، خاليًا من كل خوف، سعيدًا سعادة لا أستطيع تبريرها؟ هل كنت أنا ذلك الصبي؟ وكيف صِرتُ إلى ما أنا عليه الآن؟ كيف صرتُ مختلفًا، شريرًا، ومذعورًا، ومحطمًا هكذا؟

كان كل شيءٍ على حاله: الغابة، والنهر، ونباتات السرخس، والأزهار، والقلعة، والنمل، رغم ذلك بدا كل شيءٍ مسمومًا ومُقفرًا. ألم يكن هناك طريق عودة إلى السعادة التي ذهبَتْ وإلى والبراءة التي ولّت؟ ألن يعود الزمان كما كان؟ هل سأكون قادرًا على الضحك واللعب مع شقيقاتي والبحث عن بيض عيد الفصح المُخبأ مرةً أخرى؟

واصلتُ الركض والعرق يتفصَّد عن جبيني، ركضتُ وذنْبي في أثري يلاحقني، ركضتُ وظلّ أبي الهائل العملاق يركض خلفي، مطاردًا إياي. كانت الطرق المحفوفة بالأشجار تمرُّ عن يميني وعن شمالي إذ أركض، بينما تتلاشى تخوم الغابة عن ناظري. توقفتُ فوق أحد المرتفعات لالتقاط أنفاسي، بعيدًا عن مسار الطريق، وارتميت فوق العشب وقلبي ينبض بقوة بسبب الركض صعودًا، وربما يتحسن الحال بعد قليل. ولما مددتُ بصري رأيتُ بالأسفل المدينة والنهر وصالة الألعاب الرياضية حيث انتهَت حصة التّربية البدنية الآن، والأولاد ينصرفون كلًّا إلى حال سبيله، ورأيت من بعيد السقف العالي لمنزل أبي، حيث غرفة نوم أبي وحيث الأدراج التي سرقت منها ثمار التين، وهناك غرفتي الصغيرة، وهناك أيضًا ستنعقد محاكمتي لو عدت إلى البيت.

ولكن ماذا لو لم أعُدْ؟

كنت أعلم أنني عائد حتمًا، في مقدور المرء العودة دائمًا، في كل وقتٍ وحين، فلا أحد يستطيع الركض بلا نهاية، ولا مواصلة الجري حتى يبلغ إفريقيا ولا برلين! أنا مجرد طفل، مُعدم، لن يقف أحد إلى جواره.

آه لو اتفق الأطفال جميعًا على التعاون ومساعدة بعضهم بعضًا، الأطفال كُثر، كانوا أكثر من الآباء، لكن ليسوا كلهم مجرمين ولا لصوصًا، قِلة منهم من هم على شاكلتي، وربما أكون أنا اللص الوحيد.

ولكن كلا! فغيري أيضًا يرتكب مثل هذه الأفعال. فقد سرقَ أحد أعمامي ذات مرة واقترف جرائم أخرى. كنت قد استرقتُ السمع إلى محادثةٍ بين والدَي، وعرفت ذلك كما يعرف المرء الأشياء المثيرة للاهتمام خِلسةً.

لكن ذلك لم يكن لينفعني في شيء، فلو كان عمي قد سرق ذات مرة فلن ينفعني ذلك في شيء. لقد صار الرجل بالغًا الآن، صار كاهنًا وسيقف إلى جانبه الكِبار البالغين وسيخذلني. كلهم على هذه الشاكلة!

بالنسبة إلينا نحن معشر الصبيان فكلهم مزيفون كاذبون، يلعبون دورًا مصطنعًا ويقولون ما لا يفعلون. إلا أن أمي لم تكن كذلك، أو ربما أقل درجة منهم.

وماذا عسى أن يحدث لو لم أرجع إلى المنزل الآن؟ يمكن أن يحدث شيء ما، يمكنني أنْ أكسر رقبتي أو أُغْرِقَ نفسي أو أقفز أسفل قضبان السكة الحديدية، فتختلف الأمور. حينها سيأخذونني إلى المنزل، وسيلزم الجميع الصمت، سيبكي الجميع بخوفٍ وسيشعرون بالأسف تجاهي، ولن يأتِ أحد على ذكر موضوع سرقة ثمار التين.

لم تغِب فكرة الانتحار عن ذهني. فكّرتُ دومًا أني سأُقدِم على الانتحار يومًا ما، أقصد ربما لاحقًا عندما تزداد الأمور سوءًا. ويا حبذا لو أُصِبتُ بمرض، لا أقصد السعال وحده أو ما شابه، بل أقصد مرضًا عضالًا، مثل ذلك الوقت الذي أُصِبتُ فيه بالحمى القرمزية.

لا بُدَّ أن حصّة الجمباز قد انتهَتْ الآن، وأن الوقت الذي يُنتظر قدومي فيه إلى المنزل لتناول القهوة قد ولّى منذ فترةٍ طويلة، وربما كانوا الآن ينادون عليَّ ويفتشون عني، في غرفة نومي، في الحديقة والفناء والعليّة، أما لو كان الأب قد اكتشف سرقتي، فحينها لن يبحث أحد عني وسيكون أبي قد فهم الحكاية.

لم يكن بالإمكان البقاء مضطجعًا فوق العشب لفترةٍ أطول، لم ينَسَني القَدَر، بل واصل مطاردتي، فاستأنفتُ الجري ومررتُ بمقعد اقترنَ عندي بذكرى قديمة، كانت ذكرى جميلة وعزيزة إلى قلبي في يوم من الأيام، وها هي الآن احترقتْ وصارت رمادًا.

كان والدي قد أعطاني سكينًا للجيب، وفي يوم خرجنا معًا للتنـزّه سعيدَيْن متصالحيْن، فجلس أبي على ذلك المقعد، بينما ذهبتُ لقطع فرع شجرة بندق مدفونة في الأحراش، وفي غمرة حماستي كُسِر مني السكين الجديد على نحو صار فيه النصل قريبًا من المقبض، فرجعت إلى أبي خائفًا وفي نيتي إخفاء الأمر، لكنه حالما رآني سألني عن السكين. ملكني الغمّ والهم لكسر السكين أولًا، ولكلمات التوبيخ التي تنتظرني، إلا أنه ابتسم في وجهي وهزَّ كتفيه بهدوءٍ وقال: "يا خسارة! أيها المسكين!".

كم أحببتُ أبي في ذلك اليوم، وكم دعوتُ له سِرًا. والآن عندما أستحضرُ وجه أبي في تلك اللحظة، وعندما أفكّر في نبرة صوته وفي تعاطفه، أقول في نفسي كم أنا بشع لأني أحزنته وكذبت عليه وسرقته.

كان الظلام قد بدأ يخيم على المكان تدريجيًا عندما هممتُ بالعودة إلى المدينة. مشيتُ حتى وصلت إلى الجسر العلوي البعيد عن منزلنا. خرج صبي راكضًا من أحد المتاجر الذي كانت أبوابه الزجاجية تعكس إضاءةً من الداخل، ثم سرعان ما توقف بغتةً ليناديني على اسمي. عرفته من فوري، كان زميلي أوسكار فيبر.

وكان آخر شخص أريد رؤيته في هذه الساعة. علمت منه أن المدرّس لم يلحظ تغيبي عن حصة التربية البدنية، لكنه سألني: "أين ذهبتَ؟".

قلت: "لم أكن في مكانٍ بعينه، لم أكن على ما يرام".

لزمتُ الصمت والصدَّ، وبعد لحظاتٍ مرَّت طويلة كالدهر، لاحظَ أوسكار أني مستاء لرؤيته، فأثار ذلك غيظه. أضفتُ ببرود:

"دعني وشأني، في مقدوري العودة إلى المنزل بمفردي".

"هكذا؟".

صاح أوسكار وأضاف:

"وأنا أيضًا في مقدوري العودة إلى المنزل بمفردي أيها الأحمق، لستُ كلبكَ الوفي على أي حال، لكنني قبل انصرافي أودّ معرفة مصير صندوق التوفير خاصتنا، وضعتُ فيه عشرة سنتات ولم تضعْ أنتَ فيه شيئًا".

"يمكنك استعادة ما أودعتَه في الصندوق اليوم لو كنتَ قلقًا بشأنه، بشرط ألا أراك مرةً ثانية، هل تظنّ أني سأخذُ منكَ أنتَ شيئًا؟!".

"ولكنكَ كنت سعيدًا لما أخذته وقتها"، قالها أوسكار متهكمًا.

غلى الدمّ في عروقي غضبًا من كلامه، وتحولتْ مشاعر الخوف والبلبلة المضطرمة بداخلي إلى مشاعر حنق وبغضاء. لم يعد لدي فيبر ما يقوله، كنت محقًّا في مشاعري ضده ولم أشعر بوخزة ضمير ناحيته، كنت بحاجةٍ إلى شخصٍ أُفرِغ عليه حنقي، وأشعر بزهو الانتصار عليه، فاجتمعتْ مشاعرُ الاضطراب والكآبة الهائجة في صدري لتخرجَ عبر هذا المنفذ.

وهكذا فعلت ما كنت أحرص دومًا على تجنّبه؛ تباهيت بأصلي الكريم، وقلت إنه لا ضير عندي لو خسرتُ صداقتي بصبي "ابن حواري"، أخبرته أن عليه التوقف عن التهام ثمار التوت من بستان منزلنا واللهو بألعابي. شعرتُ بنفسي تمتلأ توهجًا وحيوية، فقد عثرتُ على خِصم وعدو، على إنسانٍ يمكنني إلقاء الذنب عليه، إنسان يمكن وضعَه في الزاوية الحرجة.

اجتمعتْ كل غرائز الحياة في نوبة الغضب المُخلِّصة، المُحرِّرة والمُرحَّب بها هاته، اجتمعَتْ غرائز الحياة في صورة الشماتة من خصمي، الخصم الذي لم يكن يعيش داخل صدري هذه المرة، بل كان ماثلًا أمامي وجهًا لوجه، مُحدِّقًا إليَّ بعينين ترميان بشرر، ويتكلم بصوتٍ أسمعه بأذني، كنت أمام خصمٍ يمكنني تحقير اتهاماته والردَّ على شتائمه بأقسى منها.

انغمسنا في وصلةِ ملاسنات بألفاظٍ نابية، مقتربيْن من بعضنا البعض، فهبطنا نزولًا إلى أحد الأزقة المُظلمة، وكان الناس يرمقوننا بالنظرات الفضولية من وراء الأبواب، فصببتُ كل مشاعر الحنق

والازدراء التي كنت أضمرها لنفسي، على شخص فيبر البائس. وعندما شرع في تهديدي بإبلاغ مدرّس التربية الرياضية بتغيبي، لمعتْ الشهوة في رأسي لأن فيبر انغمس في حقارة السلوك، لأنه وضع نفسه موضع الدناءة والحقارة، فبعثَ فيَّ شعورًا بالقوة.

ولَـمَّا بدأنا نقترب من محل الجِزارة، توقّف بعض المارّة للفرجة على شجارنا. كنا نكيل الضربات إلى بعضنا البعض، في البطن وأعلى الوجه، ورحنا نركل بعضنا بالأحذية. في هذه اللحظة نسيتُ كل ما جرى، شعرتُ أن الحقّ معي وأني لستُ مجرمًا، وانتشيتُ بلذة العِراك. حتى ولو كان فيبر أقوى مني، إلا أنني أحسست أني أكثر منه رشاقةً وذكاءً وسرعـةً ونشاطًا. استبدّت بنا شهوة المعركة، وأخذنا نتبادل الضربات بغضبٍ محموم، وعندما مـزّق ياقة قميصي بقبضته شعرتُ بلفحة هواءٍ باردٍ تسفح جلدي الملتهب من أثر العِراك.

في غـمرة الضَرب وتمزيق الملابس والركل والمصارعة والخَنق لم نتوقف عن تبادل الكلمات المؤجِّجة للعداء، ولم نتوقف عن تبادل الإهانات والسباب بكلماتٍ أشدَّ قبحًا وحماقةً وخُبثًا، لكنها كلماتٍ أكثر شاعرية وإثارة للخيال. وحتى هنا شعرتُ بتفوقي عليه؛ كنتُ أَخبث لسانًا، وأشْعرَ كلامًا، وأخصب قريحة. فلو قال لي: "يا كلب"، قلتُ له: "يا ابن العاهرة"، ولو وصفني "بالحقير"، وصفتُه بـ "الشيطان الملعون".

نزفتْ دماؤنا ولم نـشعر بشيء، وكانت كلماتنا طافحة باللعنات الخبيثة والأماني الشريرة. تمنّى كل واحد للآخر حبل المشنقة، وتمنّى كل واحدٍ أن يُرزق سكينًا حادًا ليغرسها في ضلع صاحبه. لَعنَّـا

بعضنا بعضًا، لعَّنا الأب والأصل والفصل. كانت هذه المرة الأولى والوحيدة التي أخوض فيها عِراكًا من هذا النوع حتى النهاية، منتشيًا بفورة المعركة على الرغم من كل الركلات ومظاهر القسوة والإهانة. طالما كنت أستمع إلى هذه الشتائم البذيئة والألفاظ النابية بسرورٍ ولذّة، وها هو ذا لساني ينطلق بها كما لو كنتُ معتادًا عليها منذ نعومة أظفاري ومتمرسًا على استخدامها. سالت الدموع من عينيّ، ونزفتْ الدماء من شفتيّ، لكني رأيتُ العالم رائعًا، رأيت العالمَ ذا معنى، فمن الخير أن تعيش عيشة حقيقية، أن تضرِبَ، وأن تنزِف وأن تجعل الآخرين ينزفون.

ورغم ذلك لم أفلح قـط في تذكّر نهاية هذه المعركة، ففي لحظةٍ ما انتهى الأمر، وفي لحظةٍ ما رأيتني واقفًا بمفردي في جنح الظلام، وبدأتُ أتعرف على الشوارع والمنازل، فأدركتُ أني بالقرب من منزلي.

شيئًا فشيئًا سكتَ عني غضب العِراك، وأخذ خفقان الأجنحة وهدير الرعد في التوقّف، وبدأت الحقيقة تغزو حواسي رويدًا رويدًا، بدأتُ برؤيتها. ها هي البئر، وها هو الجسر، والدمَ العالق بيدي وملابسي الممزّقة، وجواربي المنزوعـة، وألم حاد في ركبتي، وألم ثانٍ في عيني. ضاعت القبعة، وراح كل شيءٍ يقترب مني شيئًا فشيئًا، متحولًا إلى حقيقة واقعية.

حـلَّ بي التـعب الشديد بغتةً، وشعرتُ برعشةٍ تغزو ركبتَي وذراعي، تلمستُ طريقي إلى المنزل. وها هو ذا منزلنا. حمدًا لله. لم أكن أعرف غيره في هذا العالم كملاذٍ ومأوى للسلام والنور

والسكنية. تنفَستُ الصعداء وأنا أدفع بوابة المنزل المرتفعة إلى الوراء، وحينما تدفقتْ رائحة الأحجار والبرودة الرطبة إلى أنفي داهمتني الذكرى.

يا إلهي! انبعثتْ رائحة الصَرامة، رائحة القانون والمسؤولية والأب والربّ.

لقد سرقتُ. لستُ بطلًا مظفرًا عائدًا من ميدان المعركة، ولا طفلًا مسكينًا عَثر على طريقهِ إلى المنزل لتشمله أمّه بالدفء والسكنية، أنا لـصّ ومجرم، وهناك بالأعلى لا ينتظرني الملاذ الآمن ولا الفراش الدافئ ولا النوم ولا الطعام ولا الرعاية، لا ينتظرني السلوان ولا النسيان، بل ينتظرني الذنب والمحاكمة.

آنذاك، في الردهة المظلمة المقابلة للدَرج الذي كنت أصعد درجاته بصعوبة، شممتُ للمرة الأولى في حياتي ولبضع لحظات، رائحة أثير الهواء البارد، شممتُ رائحة الوحدة والقَدَر، لم أرَ مخرجًا من المأزق، ولم أكن أفكّر في خُطط، ولم ينتبني شعور بالخوف، لم ينتبني سوى ذلك الشعور البارد القاسي: "لا مـفرّ".

مُستندًا إلى درابزين السُلّم بدأتُ أرتقي درجات السُلم، وأمام الباب الزجاجي شعرتُ برغبةٍ في الجلوس للحظةٍ فوق أحد درجاته لأخذ نفسٍ عميق وتهدئة روعي. لكني لم أفعل ذلك، فلا طائل من وراء ذلك، ويتحتم عليّ الآن الدخول. وعند فتح الباب طرأ بذهني سؤال: كم الساعة الآن؟

دخلتُ حجرة الطعام، كان الجميع يتحلقّون حول المائدة وقد شرعوا في تناول الطعام، وفوق المائدة طبق من التفاح. كانت الساعة تقترب من الثامنة، لم يسبق لي قط وأن تأخَّرت دون إذن حتى هذه الساعة، ولم يسبق لي قط أن تغيّبتُ عن مائدة العشاء.

"حمدًا لله.. ها قد وصلتَ".

هتفتْ أمي بنبرةٍ مفعمة بالحيوية، لاحظتُ مدى قلقها على غيابي، وسرعان ما هرعتْ ناحيتي ثم تجمّدتْ في مكانها مذعورة عندما رأتْ وجهي وتبيّنتْ اتساخ ملابسي وتمزّقها. لزِمتُ الصمت وبصري ناحية الأرض، لكني شعرتُ أن أبي وأمي يتواصلان بالنظرات. لم ينبس أبي بكلمة، وتمالك أعصابه، لكني كنت أشعر بحجم الغضب الذي يضطرم بداخله. اعتنتْ بي أمي، فغسَلَتْ وجهي ويديّ، ولصقَتْ الضمادات، وجلبَتْ إلي شيئًا لآكله، شملتني بالاهتمام والرعاية، بينما لبثتُ ساكنًا غارقًا في خجلٍ عميق، شاعِرًا بالدفء ومستمتعًا به بضميرٍ متألّم، ثم اقتدَتُ إلى السرير، صافحتُ أبي من دون أن أنظر إليه.

كنتُ راقدًا في فراشي عندما جاءت أمي وأخذت ملابسي من فوق الكرسي واستبدلتها بملابس أخرى، لأن غدًا هو الأحد. ثم بدأت بحرصٍ شديد في طرح الأسئلة فلم أجد مناصًا من أن أحكي لها عن المشاجرة.

صحيح أنّها استهجنتْ الأمر في البداية، لكنها لم توبّخني، كما أنها دُهشِتْ بسبب ما لاحظته على ملامحي من ضيقٍ وخجل، ثم غادرت الغرفة.

الآن أُفكّر أن أمي كانت على اقتناع من أن الأمور قد انتهتْ على خير، لقد انغمستُ في مشاجرةٍ وضُربْتُ حتى نزفت دمائي، لكن الموضوع برمته سيُنسى غدًا. أما المسألة الأخرى، أقصد المسألة الحقيقية فلم تكن أمي تعرف عنها شيئًا. ورغم حزنها حافظت على مشاعرها الطيّبة الرقيقة، وفي الأرجح لم يعرف أبي شيئًا عن الأمر أيضًا.

في هذه اللحظة تملّكني شعور مرير بخيبة الأمل، شعرتُ أنني منذ لحظة دخولي المنزل كنت مملوءًا برغبة واحدة متوقدة متواصلة. أقول رغبة واحدة فقط كنتُ أفكّر فيها وأتمنّى وقوعها وأتوق إلى تحقّقها، وهي أن تهبّ العاصفة، وأن تنعقد المحاكمة وينتهي الأمر، أن يتحوّل الرعب المفزع الذي أشعر به إلى حقيقة، وأن يذهب الخوف إلى غير رجعة. كنت مستعدًا لأي شيءٍ وجاهزًا لكل شيء، أن أُعاقَب عقابًا قاسيًا وأن أُضرَب وأُحبَس، أن يتركني "هو" للجوع، أن يسبّني ويطردني. تمنيّت لو كانت لهذا الخوف والتوتّر نهاية!

لكني بدلًا من ذلك رقدت في فراشي، مستمتعًا بمشاعر الحنان والرعاية والمعاملة الحسنة، بعيدًا عن المساءلة، منتظرًا بقلقٍ الخطوة التالية. لقد سامحونني على الملابس الممزقة، وعلى غيابي الطويل عن المنزل، وعلى تفويت وجبة العشاء لأني كنتُ متعبًا نازف الدماء، فأشفقوا على حالي لأنهم عرفوا بسلوكي الطائش، لكنهم لم يعرفوا شيئًا عن الجريمة التي ارتكبتُها.

سأصبح في ورطة حقيقية لو انكشف الأمر، فربما يرسلونني -كما سبق وأن هُدِدتُ ذات مرة- إلى إصلاحية الأحداث، حيث أضطر إلى أكل الخبز القديم اليابس، وتقطيع الحطب في أوقات

الفراغ، وتلميع الأحذية، والنوم في عنابر عليها حُراسٌ يوسعوننا ضربًا بالعصي، ويوقظوننا في الرابعة فجرًا بسكب الماء البارد على أجسامنا.

هل يُسلمونني إلى الشرطة؟

على أي حالٍ، وأيًا ما كان الأمر، كان عليَّ الانتظار مجددًا، وكان عليَّ تحمّل مشاعر الخوف والذعر لفترةٍ أطول، وحمل سِرّي في صدري لفترةٍ أطول، كان عليَّ أن أرتعد خوفًا من كل نظرةٍ داخل البيت، وأن أتحمّل عدم النظر في وجه أي شخص. أم أنه من الممكن في نهاية المطاف ألا تُكتشف سرقتي من الأساس؟ وأن يبقى كل شيء على حاله؟ هل من الممكن أنني جعلتُ نفسي فريسة للخوف والألم بلا مبرر؟ ولو حدث هذا، ولو تحقّق المستحيل الجميل، أقسم أني سأبدأ حياةً جديدة، سأبتهل إلى الله شاكرًا، وسأبرهن على جدراتي بأن أعيش كل ساعة إنسانًا طاهرًا، مبرًأ من الذنوب. سأفلح ساعتها فيما سبق وإن جرّبته وأخفقتُ فيه، سيكون هدفي وإرادتي قويين بما يكفي، بعد كل ما مررتُ به من بؤسٍ ومن جحيم طافح بالعذابات. استحوذت هذه الفكرة المبتغاة على كياني استحواذًا تامًا، ونفذتْ إليه بشدة. أمطرتْ السماء بالعزاء والسلوان وفتح المستقبل أبوابه المشمسة.

وفي غمرة هذه الخيالات غرقتُ أخيرًا في النوم، نمتُ بلا همَ ولا غمَ طوال هذه الليلة السعيدة.

كان صباح اليوم التالي هـو يوم الأحد، وبينما كنت ما أزال راقدًا في فراشي، أحسستُ بمذاقٍ حُلو مثل من يتذوّق طعم فاكهة، بشعور يوم الأحد المختلف اللذيذ الذي كنت أعهده منذ أيام المدرسة.

كان صباح الأحد نِعمة من نِعم الحياة؛ كان يوم الأحد مرادفًا للنوم حتى ساعة متأخرة، فلا مدرسة، فضلًا عن تناول وجبة غداء شهية، والبعد عن رائحة المُعلّمين أو الحِبر، والحصول على قسطٍ وافر من وقت الفراغ.

وكان هذا ما يعنيني في المقام الأول. دقّات أجراس أخرى مختلفة تدقّ دقًا أضعف، كان يوم الأحد يعني التردد إلى الكنيسة أو إلى مدرسة الأحد، الخروج في نزهة عائلية، الاهتمام بارتداء أفخر الثياب.

وهكذا صار المذاق النقيّ الطيب اللذيذ للأشياء ورائحتها أقلّ زيفًا وتحلّلًا، كان الأمر أشبه بمن يتناول طعامَيْن في الوقت ذاته، كمن يأكل "البودنج" المخلوط بالصلصة، كمن يأكل أشياء متنافرة، أو كأن تشتري الحلوى أو الكعك من المتاجر الصغيرة فتجد فيها أثرًا خفيفًا مزعجًا من مذاق الجُبن أو الكيروسين، فتأكل وتقول لا بأس، فلا شيء في الحياة كامل ورائع مئة بالمئة، وعلى المرء أن يغضّ الطرف عما يسوءه.

لم تكن أيام الآحاد تختلف عن المثال السابق في أغلب الأحيان، لا سيّما عندما كنت أضطرّ إلى الذهاب إلى الكنيسة أو إلى مدرسة الأحد التي لم تكن بمثل هذا السوء دائمًا لحسن حظي، وهكذا كان يوم العطلة يجمع بين الواجب والملل في آنٍ واحد. ورغم أن نزهاتي في صحبة أفراد العائلة اتسمت في كثيرٍ من الأحيان بالودّ واللطف، لكنها لم تكن تخلو من مشكلات، كمشاجرة مع شقيقاتي، أو حينما أهرول أو أُبطئ في المشيء قليلًا أو ألطّخ ثيابي بالصمغ. لا بأس كنت أستطيع التعايش مع الأمر.

مــرَّ زمن على ما جرى البارحة، ولم أنسَ جريمتي، بل كانت أول ما تذكرته صباح اليوم، لكنها بدت عائدة إلى ماضٍ بعيد، ولاحت المخاوف في عيني نائية غير حقيقية، فأمس كفّرتُ عن ذنبي حتى لو كانت كفارتي مجرد شعور مؤلم بتأنيب الضمير، لكني تجرعتُ مرارة يوم قاسٍ مؤلم، أما اليوم فقد امتلأتُ ثقةً بالنفس وبراءةً ولم تعد هذه الأفكار تؤرقني كثيرًا. لكن العذاب لم يتبدّد بصورةٍ تامة، حيث كانت رأسي تموج بشيءٍ من مشاعر التهديد والاضطراب، التي كانت قريبة الشبه بتلك الالتزامات الصغيرة ومظاهر الإزعاج التي تشوب أيام الآحاد الجميلة.

على مائدة الإفطار غمرتنا جميعًا البهجة، وخُيِّرت ما بين الذهاب إلى الكنيسة أو مدرسة الأحد، لكني آثرت الذهاب إلى الكنيسة كعادتي، فهناك أحظى بشيءٍ من الهدوء، وتنعم أفكاري بحرية التجوّل كيفما تشاء، هذا علاوة على جمال ووقار الكنيسة بمساحتها الواسعة، وسقفها المرتفع، ونوافذها الملوّنة. وكنت عندما أُضيّق عينيّ وأنظر عبر أنابيب الأرغن[1] الطويلة أرى أحيانًا صورًا رائعة الجمال، وكانت هذه الأنابيب الممتدة تبدو وسط الظلام وكأنها مدينة مشرقة بمئات الأبراج. وقد حالفني الحظّ عدة مرات في الأوقات التي لا تكون فيها الكنيسة عامرة بالمصلّين في أن أنغمس في قراءة كتاب القصص، لكني اليوم لم أصطحب معي كتابًا، ولم

---

(1) أنابيب الأرغن آلة موسيقية ما زالت تُستخدم على نطاقٍ واسع في الصلوات الدينية بالكنائس، وهي مجموعة مختلفة من الأنابيب كل منها له لون لحني معيّن (المترجم).

أفكّر في الزوغان من الكنيسة كما فعلتُ في السابق أحيانًا. فما تزال أصداء ما جرى البارحة عالقة في نفسي، وتذكّرت النيّة الصادقة التي عقدتها على أن أسلك سلوكًا طيبًا مستقيمًا مع الله ووالدَي والعالم بأسره. كما أن حنقي على أوسكار فيبر قد تبدّدَ تمامًا ولم يبقَ منه شيء، ولو لقيته اليوم لاستقبلته بالأحضان كصديقٍ حميم.

بدأتْ الصلاة، ورُحت أغني مع الجوقة أنشودة "ارعَ غنمكَ"، التي كنا قد حفظناها في المدرسة عن ظهر قلب. وتنبّهتُ مجددًا كيف أن الأغنية ونحن نُغنّيها بهذا الإيقاع البطيء المتثاقل، بدتْ مختلفةً تمام الاختلاف عما كنا نقرأه في المدرسة، ففي القراءة العادية كانت أبيات الأنشودة وحدة كُلية ذات معنى ومؤلَفة من جُمل، أما في الغناء فكانت الأبيات مُكوَّنة من كلماتٍ فقط، لا من جُمل، كلمات بلا معنى، إلا أن هذه الكلمات المفردة المُغنّاة الممطوطة، اكتسبَتْ عِوضًا عن ذلك حياةً قوية مستقلة. نعم، فكثيرًا ما كانت تكتسب هذه المقاطع اللفظية التي لا معنى لها بمفردها شكلًا مستقلًا قائمًا برأسه وذاته.

فعبارة: "ارعَ غنمكَ التي قد لا تعرف شيئًا عن النوم" هي عبارة بلا سياقٍ ولا معنى لدى غنائها في الكنيسة، لأني لا أفكر حين أغنيها لا في الغَنَم ولا النوم، بل لا أفكّر في أي شيءٍ البتة، إلا أن ذلك لم يكن مملًا على الإطلاق، فبعض الكلمات بعينها لدى غنائها مثل "النــوووووم" كانت تفيض غرابةً وجمالًا، وكانت تهزّني بعذوبة، وحتى كلمة "قد" كان لها وقع غامض وثقيل، يذكرني بكلمة

بطن[1]، وبكافة الأشياء المظلمة، العاطفية، نصف المعروفة التي نحملها داخل أجسادنا.

بعدها وصل الكاهن ليلقي الموعظة، تلك الموعظة التي طالما كانت مُسهَبة الطول على نحوٍ غير مبرر، وكنت أسمع صوتَ قائلها مثل صوتٍ هائم لجرسٍ يُقرع في الهواء، ثم أقبض على مغزى واضح حادٍ لبضع كلمات معدودات منها، محاولًا بشقّ الأنفس متابعة ما يُقال قدر استطاعتي.

تمنيتُ لو سُمح لي الآن بالجلوس وسط أفراد الجوقة عِوضًا عن الجلوس وسط الناس في بهو الكنيسة. فوسط الجوقة التي كنت أجلس بين أفرادها في حفلات الكنيسة، تغرق عميقًا بجسدكَ داخل مقاعد ثقيلة معزولة عن بعضها، كل مقعد منها أشبه بمبنى صغير ثابت الأركان، بينما يعلو رأسكَ قوس الكنيسة العالي، الجذاب، المعقَد، شبكي التصميم، وقد رُسمت على جدران الكنيسة لوحة موعظة الجبل بألوان زاهية، بينما تبدو زُرقة ثوب "المُخلِّص" المشوبة بالحُمرة رقيقة تسرّ الناظرين مقارنةً بزرقة السماء الشاحبة. في بعض الأحيان كانت مقاعد الكنيسة الخشبية تصدر صريرًا، وكنت أنفر منها نفورًا شديدًا بسبب لون الطلاء الأصفر القبيح الذي كان يلتصق بيدكَ، وفي أحيانٍ أخرى كنت أرى ذبابة تحلّق بالقرب من إحدى نوافذ الكنيسة الموشّاة بورود حُمر وزرق ونجوم خضر أعلى إفريز النافذة.

---

(1) لا يمكن فهم المراد هنا إلا في اللغة الأصلية حيث يلعب هسّه على الجناس الصوتي بين كلمتي mag (قد/يمكن) وكلمة Magen (بطن))المترجم).

انتهت موعظة الأحد بغتةً وانحنيتُ في مقعدي لأرى الكاهن وهو يختفي في درجات السُلم المظلم الضيّق. بعدها استأنف الجميع الغناء بقوَّة وصوتٍ عالٍ، ثم نهض الحاضرون تهيئًا للانصراف. ألقيتُ العملة المعدنية التي جلبتها معي داخل صندوق التبرعات بالكنيسة، فكان صدى ارتطامها الرخيص غير منسجم البتة مع مهابة المكان، وتركت نفسي لتحملني حشود المصلّين ناحية البوابة إلى البراح بالخارج.

ثم جاءت أجمل أوقات يوم الأحد؛ أقصد الساعتين الفاصلتين بين زيارة الكنيسة وموعد الغداء. بعد أن أكون قد فرغتُ من واجباتي، وبعد أن أكون قد اشتقتُ إلى الحركة والمشي بعد ساعاتٍ طويلة من الجلوس، تستبدُّ بي الرغبة في اللعب أو النزهات الطويلة أو قراءة كتاب.

أيًا ما كان الأمر كنت أملك قسطًا وافرًا من وقت الفراغ حتى يحين موعد الغداء. رحتُ أتمشى على مهلٍ قاصدًا المنزل، وروحي مفعمة بكل الأفكار والمشاعر الطيبة. رأيتُ العالم على ما يُرام، ورأيته جديرًا بأن يُعاش. ارتقيتُ درجات السُلّم بهدوءٍ وسكينة. كانت أشعة الشمس تغمر غرفتي الصغيرة، فأخذتُ أتفحّص صندوق دود القزّ الذي تركته بلا رعاية أمس، فرأيت بعض الشرانق الجديدة، ثم سقيتُ النباتات.

ثم فُتح الباب.

لم أنتبه للوهلةِ الأولى، لكن بعد مرور دقيقة بدا السكون الذي لفَّ الغرفة غريبًا، التفَتُّ إلى الوراء فرأيت أبي واقفًا، وبدا على ملامحهِ الشحوب والضيق. غصَّ حلقي بالتحية؛ أدركتُ أنه عرِفَ بالأمر. ها هو ذا، ستبدأ المحاكمة. لم تسر الأمور كما أشتهي، لم يُغفَر شيء ولم يُنسَ شيء. غرُبتْ الشمس وتبدّد صباح الأحد.

بقيتُ أُحدّق في وجه أبي كمن مسَّته صاعقة من السماء. كرهتُه. لماذا لم يأتِ أمس؟ لم أكن مستعدًا في هذه اللحظة لأي شيءٍ ولا جاهزًا لأي شيء، لم تراودني حتى أدنى ذرة من ندم أو شعور بالذنب. ثمّ لماذا كان يحتفظ بالتين المجفّف في أدراج خزانته بالطابق الأعلى؟

توجّه ناحية خزانة الكتب الخاصة، ومدَّ يده خلف الكتب وأخرج بعض ثمار التين، التي لم يكن قد بقيَ منها سوى القليل. حاصَرني بسؤالٍ مُحرِج أخرس لساني. خنق صوتي الألمُ والعِناد.

"ما الأمر؟"، كسرتُ حاجز صمت وأنا أسأله.

سألني بنبرةِ صوتٍ خفيضة منضبطة طالما كنتُ أمقتُها: "من أين أتيتَ بهذا التين؟".

بدأت أتحدث على الفور. كذبتُ. أخبرته أني اشتريْت التين من صانع حلوى، كانت عُلبة كاملة. من أين أتيتَ بالمال؟ جئتُ بالمال من صندوق ادخارٍ كوّنته مع صديق. كان كل واحد يشارك بِقطع النقد الصغيرة التي كنا نحصل عليها من حين إلى آخر. وها هو ذا الصندوق. أخرجتُ الصندوق وأريته الطاقة الصغيرة أعلاه، ولم يبق داخله إلا عشر سنتات لأننا اشترينا ثمار التين أمس.

بقيَ أبي يصغي إلى كلامي بملامح وجهٍ هادئة ثابتة لم أُصدّقها، ثم سأل بنبرةٍ هادئة: "وكم ثمن التين؟".

"مارك وستون بفيننج".

"ومن أين اشتريت التين؟".

"من محل الحلوى".

"أي محل؟".

"محل Haager".

غشينا الصمت لبرهة، وكنت ما أزال مُمسكًا بصندوق النقود بأصابعي المرتجفة. كانت كل ذرة في جسدي باردة متجمّدة.

سألني أبي بنبرة فيها شيء من التهديد: "هل تقول الحقيقة؟".

تكلمتُ بسرعة: "نعم، بالطبع أقول الحقيقة، ذهب صديقي فيبر إلى محل الحلوى، رافقته فقط، كان أغلب المال يخصّه، يخصّ صديقي فيبر، ولم أشارك إلا بقدرٍ يسير من المال".

"خذ قطعتك النقدية"، قال أبي، ثم أردف: "سنذهب معًا إلى محل حلوى Haager لنتأكّد".

حاولتُ الابتسام لكن البرودة اجتاحتْ أطرافي حتى نفذت إلى القلب والأمعاء، مشيتُ خطوة وسحبتُ الطاقية الزرقاء من موضعها في الممرّ. فتحَ الأبُ الباب الزجاجي وسحبَ قبعته.

"لحظة من فضلك"، قلتُ ثم أضفتُ: "سأغيب لمدة دقيقة".

أومَأ برأسه. ذهبتُ إلى دورة المياه وأغلقت الباب ورائي. كنت بمفردي، كنت في أمان لمدة دقيقة واحدة فقط، آه لو مِتُّ الآن!

لبثتُ هكذا دقيقة، ثم دقيقتيْن، ولكن بلا جدوى. ها أنتَ ذا لم تُمت، ولا مفرّ من مواجهة الأمر. فتحتُ الباب وخرجت، هبطنا درجات السُلّم. عندما وصلنا إلى باب المنزل خطرت بذهني فكرة جيدة فقلت بسرعة: "لكن اليوم هو الأحد، وأبواب المحل مُغلقة". كانت هذه فكرة عقدتُ عليها الأمل لبضع ثوانٍ، لكن أبي أجاب بهدوء أعصاب: "لنذهب إذن إلى منزله، هيًّا".

وانطلقنا. سوّيتُ القبعة على رأسي ووضعت يدي في جيبي، محاولًا السير إلى جواره جنبًا إلى جنب كما لو أن كل شيءٍ على ما يُرام. كنتُ أعلم أن كل من يراني كان يعرف أنني لستُ إلا مجرمًا يُقتاد بعيدًا، لكني سعيتُ جاهدًا لإخفاء الأمر بشتى السبل. كنت أحاول التنفّس على نحو طبيعي يسير، ولم يكن من الصعب على أحدٍ أن يرى كيف يعلو ويهبط صدري. حاولت رسم ملامح البراءة على وجهي واصطناع ملامح الثبات والهدوء، ارتديتُ جوربًا طويلًا دونما حاجة إلى ذلك، وحاولت رسم البسمة على شفتي رغم علمي أن بسمتي تبدو غبية مصطنعة بشكلٍ صارخ. أما في أعماق نفسي، داخل حنجرتي وأحشائي، شيطان قابع يحاول خنقي.

في طريقنا مررنا بالمطعم، ودكان الحِدادة، والحافلة الإيجار، وبالجسر الحديدي. هنا نشب العراك بيني وبين فيبر. أما يزال الجُرح أعلى عيني يؤلمني؟ يا إلهي! يا إلهي!

كنت أمشي مسلوب الإرادة، محاوِلًا بمشقة بالغة السيطرة على انتفاضات جسدي. اجتزنا الشارع الرئيسي ووصلنا إلى شارع "بانهوف شتراسِه". كم كان هذا الشارع بالأمس طيبًا غير مؤذٍ!

لا تُفكِّرْ. واصل السير. واصلْ. كنا على مشارف بيت Haager الحلواني. وفي أثناء الدقائق المعدودات عشتُ مئات المرات "المشهد" الذي ينتظرني بالداخل. وها قد وصلنا، وها هو المشهد قادم، لكني لم أقوَ على تحمّل ذلك، فلزمتُ مكاني واقفًا.

"ما الأمر؟ ماذا بك؟"، قال أبي.

"لن أدخل إلى المنزل"، أجبتُ بصوتٍ خفيض.

رمقني أبي بنظرةٍ من أعلى إلى أسفل، من المؤكد أنه كان يعرف بحقيقة الأمر من البداية. وفيمَ هذه التمثيلية التي لعبها وفيمَ هذه المشقة؟ عبث!

"ألم تشترِ ثمار التين المجفف من حلواني Haager؟".

هززتُ رأسي نافيًا.

"هكذا إذًا!"، قالها أبي بهدوءٍ ظاهري، "يمكننا إذن العودة إلى المنزل".

تصرّف أبي تصرفًا لائقًا وأحسنَ معاملتي أمام الناس في الشارع المزدحم بالمارّة، وفي كل دقيقة يلقي أحدهم بالتحية على أبي. ولكن ما هذه المسرحية؟ وما هذه السخافة والعذاب العبثي؟ لم أستطع أن أكون ممتنًا له على هذه المعاملة الحسنة! بالطبع كان يعرف أبي كل شيءٍ من البداية، لكنه تركني ألهو، وتركني أواصل نسجَ حِيلي العقيمة حتى النهاية مثل من يدع فأرًا محبوسًا في مصيدة يلهو كيفما يشاء، قبل أن يُغرِقَه في الماء.

ويا ليته هوى على رأسي بالعصا من البداية من دون أن يسألني ويحقّق معي، لكان هذا أفضل عندي من مصيدة الهدوء والعدالة

التي حاصرَ فيها أكاذيبي الحمقاء وخنقها بهدوء. ربما كان من الأفضل لو كان أبي رجلًا فظًا بدلًا من أن يكون رقيقًا عادلًا. لو افترضنا أن أبًا يضرب أطفاله ضربًا وحشيًا وهو غاضب أو مخمور كما أقرأ في القصص والأخبار، فهو مخطئ بلا شك، ولو كان الضرب مؤلمًا فليس أمام المرء إلا أن يحتقره، لكن الأمر لم يكن هكذا مع أبي الذي سلك سلوكًا راقيًا للغاية، سلوكًا لا غُبار عليه، لا يمكنك أن تصفه بالخطأ. طالما أشعرني أبي أمامه بالضآلة وقِلة الحيلة. كنت أصرُّ على أسناني قبل دخولي إلى المنزل وعودتي إلى غرفتي، بينما حافظ أبي على ثباته وهدوء أعصابه، أو أنه بالأحرى تظاهر بذلك، لأني في حقيقة الأمر كنتُ أشعر أنه يفور غضبًا، ثم بدأ بعدها يتحدث بطريقته المعتادة:

"أودّ فقط أن أعرف ما الداعي من وراء هذه المسرحية الهزلية؟ هل تستطيع أن تخبرني؟ كنتُ أعرف منذ البداية أن قصتك المحبوكة مجرد أكذوبة؟ لِمَاذا هذا الاستعباط[1]؟ هل كنتَ تحسبني بهذا الغباء لأصدّق حكايتكَ؟".

بقيتُ أعض على أسناني وازدرد لعابي. تمنيتُ لو توقّف عن الكلام. كان يتكلّم وكأني في الأصل أعلم لِمَ كذبتُ عليه أو كأني أعرف لماذا لم أعترف بجُرمي ولماذا لم أطلب الصفح؟ أو كأنني أعرف لِمَ سرقتُ ثمار التين المجفف؟ هل كانت هذه رغبتي حقًّا؟ وهل سرقتُ عن تدبُّر ومعرفة وأسباب حقيقية؟ ألمْ يؤلمني الأمر؟

---

(1) استعبطَ استعباطًا: ظنّه أو جعله عبيطًا. راجع معجم اللغة العربية المعاصر، د. أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى 2008 (المترجم).

ألم تؤلمني السرقة أكثر مما آلمت مشاعر أبي شخصيًّا؟لبث ينتظر مني ردًا بوجهٍ طافح بالتوتر ونفاد الصبر. للحظةٍ واحدة، وفي أعماق عقلي الباطن، اتضحتْ أمامي الصورة بكامل أركانها، لكني لم أكن قادرًا على صوغها في كلمات مثلما أنا قادرٌ الآن.

كان الأمر كالتالي: سرقتُ لأني جئتُ إلى غرفة أبي ملتمسًا منه السلوان والعزاء، لكني خُذِلتُ لما وجدتها فارغة. لم أكن أنوي السرقة من الأساس، ولما وجدت أبي خارج الغرفة أردتُ التجسس فقط وتفحّص أغراضه والتلصص على أسراره ومعرفة شيء عنه، لم يزد الأمر عن ذلك، ثم رأيتُ ثمار التين هناك فسرقتها، لكني سرعان ما ندمتُ وبقيتُ طوال أمس أعاني مرارة الألم والقنوط، وتمنيتُ لو أخذني الموت. أدنْتُ نفسي وعقدت نوايا حسنة، أما اليوم، نعم، أما اليوم فالأمر مختلف، فقد ذقتُ طعم النَدم، وأضحيتُ أشدّ رصانةً، وتملَّكني صدٌّ هائل غير مفهوم إزاء أبي وإزاء كل ما كان يتوقعه ويطلبه مني. ولو كان في مقدوي ساعتها إخباره بذلك لكان قد فهمني، فحتى الأطفال بقدر ما هم أذكى من الكِبار، يشعرون بالوَحدة وقِلّة الحيلة في مواجهة تدابير القَدَر. هذه هي روح الأطفال. لزمتُ الصَمت، وكياني متيبّس من العِناد والألم الشديدين، وتركت أبي يواصل حديثه الذكي، وأنا أراقب بحزنٍ وشماتة كيف ساءت الأمور وكيف تفاقَمَ السوء، بقيتُ أراقب ألمَه وخيبة أملِه فيَّ، أراقب تبدّد آماله في استنهاض الغرائز الطيّبة داخلي.

ولما سألني: "هل سرقتَ التين إذًا؟"، لم أملك إلا الإيماء برأسي. لم أستطعِ إجبار نفسي على الإتيان بأكثر من إيماءةٍ هزيلة في حين كان يتوقع مني أن أنطق بكلمة الاعتذار.

قلت في نفسي: كيف يمكن لهذا الرجل البالغ الذكي أن يطرح مثل هذا السؤال السخيف؟ وكأنه لا يستطيع أن يرى كيف يؤلمني أمر السرقة، وكيف يعتصر قلبي حزنًا! أو أنني في مقدوري الاستمتاع بفعلتي البائسة وبسرقة التين! ربما لأول مرة في فترة طفولتي أشعر أني على عتبة الفهم والوعي، وأدركُ كيف يمكن لشخصين ذوي نوايا حسنة أن يعذبا بعضهما البعض، وكيف أن كل محاولات الكلام والحِكمة والعقل ليست إلا سمًا زُعافًا، وأنها لا تفعل إلا أن تحفر جروحًا جديدة وتصنع أخطاءً جديدة. كيف كان ذلك ممكنًا؟ لكن كان ممكنًا وحدثَ. كان الأمر برمته سخيفًا، مجنونًا، باعثًا على السخرية واليأس أيضًا، لكنه كان كذلك. والآن كفى من هذه القصة! فقد انتهى بي الأمر لأن أُحْبَسَ في "العليّة" بعد ظهر يوم الأحد، لكن العقوبة القاسية فقدت شيئًا من فظاعتها لأسبابٍ ستبقى مطوية داخل صدري إلى الأبد.

في العليّة المظلمة وجدتُ صندوقًا مغبّرًا مملوءًا حتى النصف بكتبٍ قديمة، ولم يكن بعضها مخصصًا للأطفال، لكني التمستُ شيئًا من الضوء للقراءة عن طريق إزاحة بلاطة السقف جانبًا. وعشية يوم الأحد الحزين هذا وقبل الذهاب إلى الفراش تلطّف أبي وتحدّث معي حديثًا قصيرًا انتهى بالمصالحة.

وبينما كنت راقدًا في فراشي أيقنتُ أن أبي قد صفح عني صفحًا أشدَّ من صفحي عنه.

(1919)

عن حِكمة العُمر والسخرية والحماقة

كانت أشدُّ الذكريات حيوية وعذوبة عن جدي هي الذكرى التالية: لم أكن قد أتممتُ الخامسة عشرة بعد، وكنت ما أزال تلميذًا في معهد الدراسات اللاهوتية بمدينة "ماولبرون"، وقدمي تطأ أول درجة في السُلَّم الذي سينتهي بي إلى المعهد، أو إلى سلك التدريس، أو إلى شغل منصب كاهنٍ أو إلى أن أسلك طريق الشعراء "البرناس"[1] من أبناء مقاطعة "شفابن"، حينذاك مررتُ بأقسى أزمة واجهتني في حياتي الدراسية وارتكبتُ جُرمًا لا يُغتفر، جرمًا أنزل الخزي بي وبأسرتي الموقَّرة؛ كنت قد هربتُ من المعهد واستمرَّ البحث عني طوال يوم كامل وأُبلِغتْ الشرطة بما جرى، واضطررت لقضاء ليلة كاملة فيٍّ البراري وسط البرودة القاسية حتى كدتُ أشرف على الموت، ثم عدتُ بعدها إلى منزلي لقضاء إجازة بعد خروجي من المستشفى. ورغم أن المعهد لم يصدر قرارًا نهائيًّا بفصلي أو استبعادي، لكن مستقبلي الدراسي قد صار على المحكّ بدرجة لا تبشِّر بأي خير. ربما كنتُ سأصير أقلَّ فزعًا لو عاملونني كمجرم وعدو، ولا سيّما الأقارب، لكنهم أحاطونني بمظاهر الشفقة والتوجّس المفرط كما لو أنني مصاب بداء عضال مُعدٍ.

---

(1) المذهب البرناسي يدعو إلى اعتبار الأدب غاية في حد ذاته والبعد عن توظيفه لأغراض سياسية أو اجتماعية، وهو ما يُطلق عليه مذهب الفن لأجل الفن (المترجم).

من بين أولى الزيارات الواجبة التي تحتّم عليَّ القيام بها بعد وصولي إلى المنزل، بل أهمّ الزيارات وأصعبها هي زيارة منزل جدي الموقَّر الحبيب، الذي كان آنذاك مهيب الجانب. لم تخامرني ذرة شكَ في أن والدَيّ كانا يعقدان أملًا كبيرًا على هذه الزيارة وأنهما سألا هذا الشيخ الوقور أن يمحص ما في قلبي لأجل أن يوضح لي جسامة الجُرم الذي ارتكبته والتبعات التي أسفَرت عنه. كان ذهابي إلى منزله العتيق، وارتقائي درجات السُلم المؤدي إلى غرفة مكتبه المغمور بأشعة الشمس، يُشبه ذهاب المذنب إلى قاعة المحكمة.

كانت حجرة الانتظار الفسيحة تغصُّ بمئات، بل بآلاف الكتب التي أسرتْ انتباهي آنذاك، ثم اطلعتُ على كثيرٍ منها لاحقًا. كانت الحجرة خافتة الإضاءة، يلفّها السكون، وعبر النافذة الوحيدة رأيتُ الجدار الداخلي للبيت متألقًا تحت أشعة الشمس، فيما تزيّن سقف البيت طاقة واسعة معتمة، عُلّقت في إحدى جوانبها تعليقًا مائلًا غير متزن عجلة الرافعة المستعملة لرفع حطب التدفئة. كان كل هذا، بما في ذلك صفوف الملفات الرمادية المرصوصة فوق الأرفف المنخفضة لخزائن الكتب، والتناسق الدقيق للمسافات الفاصلة بين كل عنوان من عناوين مجلدات المجلات الدورية ذات الخطّ الباهت، ولمعة الذهب التي أطفأها الزمن من فوق الأغلفة الجلدية للكتب، أقول كانت لكل هذه المظاهر التي رأيتها أهمية بالغة في تلك الساعة المصيرية في حياتي، أهمية تتجاوز الواقع، وكانت مقرونة عندي بعالم النِظام والانضباط والنظافة والدقة، وهو العالم الذي هربتُ منه لأضيعَ نفسي بإقدامي على تلك الخطوة الرعناء، الخطوة التي سأحاسَبُ عليها الآن.

دلفتُ إلى قدس أقداس جدي مذعورًا، فتدفّقت إلى أنفي رائحة دخان الغليون وعبق الورق والحبر، ورأيتُ انعكاس أشعة الشمس فوق الطاولات المكتظة بالكتب والمجلات والمخطوطات بعدة لغاتٍ، ثم أبصرتُ جدي أمامي مُولِيًا ظهره ناحية النافذة والشمس، جالسًا فوق أريكته العتيقة، غارقًا في سحب دخان الغليون التي تتخللها أشعة الشمس، ثم رفع بصره عن فوق أوراقٍ كان يُدوّنها ونظر إليَّ.

ألقيتُ التحية بصوتٍ خفيض ومددتُ يدي، مستعدًا لبدء التحقيق، أو للحُكم عليَّ أو لَعني. افترَّ ثغره الذي كان يجيد الحديث بطلاقةٍ عدة لغات، عن ابتسامةٍ رقيقة، وبانت نواجذه من بين اللحية البيضاء الكثيفة، ثم غمرني بابتسامةٍ أعذب بعينيه الزرقاوين المشرقتيْن، فخفَتْ حِدّة التوتر، وأدركت من فوري أن ما ينتظرني في هذه الغرفة ليس حُكمًا ولا عقابًا، بل ينتظرني التفهّم، وحِكمة الشيوخ، والحِلْم الممزوج بالسخرية، ثم سرعان ما فتح فمّه قائلًا: "ها أنتَ إذن يا هيرمان؟ سمعتُ أنك قمتَ مؤخرًا برحلة جوّال حرّ".

وكان تلامذة مقاطعة توبينجين يطلقون تعبير "رحلة جوّال حرّ" قبل خمسين سنة على المغامرات الجريئة التي يقومون بها تحت تأثير النشوة أو بدافعٍ من التمرّد على السائد أو القنوط منه. ثم عرفت بعد ذلك ببضع سنوات أنه شخصيًا، أي جدي، المسيحي الورِع والعالم النحرير، قد جرَّب ذات مرة أجواء رحلات التجوال الخطِرة هاته. كان قد جرّبها في فترة مبكّرة من شبابه، وتحديدًا في اللحظات التي عاشها هو ورفاقه بين غرور الشباب واليأس المحرّض على الانتحار، فنظَّمَ القصيدة التي أعدتُها إلى الأضواء مجددًا بعد انقضاء ما يقرب من مئة وعشرين سنة على تأليفها.

ثم تذكَرتُ أن باحثًا من باريس، متخصصًا في الآداب الألمانية، كتب إليّ رسالة وثيقة الصلة بالقصيدة نفسها إذ قال: "أريد أن أخبركم بقيمة قصيدة هيرمان جونديرت[1] بالنسبة إليَّ، مثلها كمثل شجـرة كرم وارفة الظلال محيطة بجذع ضارب بجذوره في الأرض، كما أن أهميتها راجعة إلى أنها عرّفتني معنى "التقاليد العائلية"، التي وإن كانت ثقيلة على النفس، إلا أنها لا تخلو من قيمة تعين المرء على المضي قدمًا في طريقه. والحقيقة أنني ربطت هذه القصيدة بحالة ألبيرت شفايتسير[2]. ربما علمتَ أن "جان بول سارتر" هو حفيد شقيقه، أقصد حفيد الشقيق ذي الأصول الباريسية لألبيرت شفايتسر، وكان واحدًا من كبار المتخصصين في الأدب الألماني، وتلميذًا نجيبًا لـ"هانس زاكس"، حتى غدا نفسه قريب الشبه بزاكس بلحيته البيضاء وفظاظة طباعه. مما أعطى لسارتر الفرصة لأن يتحول إلى رجل عَدَمي نتيجة انحداره من هذه السلالة من الأستاذة والقساوسة. فأتباعه (أي أتباع سارتر) ممن لا يتمتعون بهذه الذخيرة الأخلاقية العائلية الحامية، قد أصابهم القنوط".

(من دون تاريخ)

هيرمان هسّه عن السعادة والحياة والحب والكتب (من رسائله وأعماله)

---

(1) جدّ هيرمان هسّه (المترجم).

(2) ألبيرت شفايتسر (1965-1875)، فيلسوف ولاهوتي وكاتب ألماني، أصله من إقليم الإلزاس، حصل على جائزة نوبل في السلام سنة 1952، وكان يرى أن اضمحلال الحضارة الغربية راجع بالأساس إلى التخلي عن القيم الأخلاقية، ترجمَ له د. عبد الرحمن بدوي كتاب فلسفة الحضارة (المترجم).

"أينما أَنجزَنا عملنا وواصلنا حُلمنا وغرسنا شجرة ورُزِقنا طـفلًا، فمعنى ذلك أن الحياة تسير في مجراها الطبيعي، وأننا أفلحنا في شقّ حفرة تبثّ نورًا وسط جدار الزمان المعتم".

من خطاب إلى شتيفان تسفايج مؤرخ في صيف 1910

***

يتمتع الأطفال برحابة صدرٍ واسعة، لأنهم يستطيعون المؤالفة بين أشياءٍ متنافرة إلى جوار بعضها البعض مستعينين بسحر الخيال الساكن أرواحهم، بينما تتحوَّل الأشياء ذاتها في رؤوس الكِبار البالغين إلى صراعٍ محتدم، عملًا بمبدأ إما/ أو.

الكتابات والقصائد التي تركها هيرمان لاوش 1900

***

في البداية الأولى يتعلّم كل طفلٍ فـنّ رؤية العالم في الأشياء الماثلة أمامه، ويتعلّم أن يُولي اهتمامه بالعالم الذي بين يديه أكثر من اهتمامه بالعالم البعيد غير المنظور. إلا أن السواد الأعظم من الأطفال ينسَون ما تعلّموه في السنة الأولى من المدرسة أكثر فأكثر، ولا يحتفظ منهم إلا قلّة قليلة بما تعلّموه، بينما يجاهد بعضهم بمشقة لإعادة تعلّم ما فقدوه حينما يتقدم بهم السنّ ويقودهم حبّهم للحياة إلى أرض الطفولة الآمنة.

الطفولة الأولى والثانية ليوليوس أبدريجيس 1901/1902

***

ليس في مقدور أي شاعر أو رسّام أن يغلب طفلًا في المقدرة على ابتكار شيءٍ جديد، وليس في مقدور أي كتاب أو شيء في الحياة مهما بلغت رزانته وجدبه، أن يعجز طفلًا عن استخراج شيء نافع منه.

من مراجعة كتاب "كتب الصور" لإرنست كر ايدولف، ديسمبر 1908

***

الأطفال كلهم شعراء

الطفولة الأولى والثانية ليوليوس أبدربجيس 1901/1902

***

يعجز البالغون بكل ما أوتوا من فطنة ومشاعر حب أن يتخيّلوا ما يجري في نفوس الأطفال ولا كيف تنعكس صورة العالَم داخلهم، فالبالغون محاصرون على الدوام بطوقٍ من العادات والتقاليد التي يتحتّم وجودها في حياتهم، ويبدو ألا يلزمها أي تفسير.

الطفولة الأولى والثانية ليوليوس أبدربجيس 1901/1902

***

في الطبيعة البشرية تبلغ سطوة العادة والمجتمع من القوة ما تدفع كل طفلٍ إلى أن يشعر من خلال حواسّه المرهفة بأي اضطراب في النظام الذي خلقه ذلك المجتمع، حتى قبل أن يعرف أسباب الاضطراب أو أن يرى أثره بعينيه.

من "بيرتهولد"، سنة 1907 تقريبًا

***

كثيرًا ما كنت أعودُ إلى التفكير في والدَي. كانا يقولان إني ابنهما ولا أختلف عنهما، ورغم حبي لهما كنت أشعر أنني - في أعينهما - لستُ إلا إنسانًا غريبًا لا يقدران على فهمه. كانا يريان علّة وجودي وجوهر روحي أمورًا هامشية مردّها حداثة سنّي وحالتي المزاجية. كانا يحباني ويفعلان لي كل شيءٍ عن طيب خاطر. صحيح أن الأب يستطيع أن يورث ابنه شكل الأنف وشكل العينين وحتى عقلانيته، لكنه لا يستطيع أن يورثه الروح، فهي جديدة في قلب كل إنسان.

من رو اية كنولب 1907/1914

***

أفكّر كم ستكون حياة كثير من الناس أكثر جديةً ونقاءً ووقارًا إذا واصلوا البحث والتفتيش عن مسميات الأشياء بعد تجاوزهم طور الشباب! ما قوس قزح؟ لماذا تئن الريح؟ من أين يأتي اصفرار المروج؟ ومن أين يأتي اخضرارها؟ ومن أين يأتي المطر والثلوج؟ لماذا نحن أغنياء وجارنا "شبنجلر" فقير؟ إلى أين تذهب الشمس في المساء؟

الكتابات والقصائد التي تركها هيرمان لاوش 1900

***

مثل كل الصبيان كنتُ أحسد بعض أصحاب المهن، كالصياد و المراكبي أو قاطع تذاكر في قطار أو البهلوان الذي يمشي على الحبال أو المستكشف الذي يجوب القطب الشمالي، رغم ذلك كانت المهنة الأقرب إلى قلبي هي أن أكون ساحرًا، وكانت هذه الأمنية هي الأعمق والأرسخ في طبيعتي بسبب نفوري مما يطلق

عليه الناس لفظ "الواقع" الذي تراءى إليَّ أنه مجرد مؤامرة سخيفة من اختراع البالغين. وفي وقتٍ مبكّر من حياتي أحسستُ برفض قاطع للواقع، وأحسستُ في أحيانٍ أخرى بمشاعر خوفٍ وأحيانًا بمشاعر ازدراء، ومن ثمّ تملّكتني رغبة مُلحة نحو تغيير الواقع عبر السحر وإلى تبديله والارتقاء به.

طفولة الساحر، 1921 1923

***

يُـنظَر إلى كثيرٍ من الأفعال باعتبارها أفعالًا قبيحة لمجرد أنها تزعج شعور الآباء، في حين أن الطفل يفعل بضميرٍ مرتاح ما يشعر أنه طبيعي وبريء.

من رسالة إلى والده يوهانيس هسّه، مؤرخة في 16 نوفمبر 1910

***

لم يكن مفهوم الوطن بالنسبة إليَّ مفهومًا سياسيًا قط، بل مفهومًا إنسانيًا محضًا. كان وطننا هو البقعة التي عشنا فيها سنوات الطفولة وأدركنا أول صور العالَم والحياة، وطالما أحببتُ وطني ذاك وأنا أشعر بالامتنان.

من رسالة إلى أوسكار بليسنج، عمدة مدينة كالف (مسقط رأس هسّه)، مؤرخة في 6 يوليو 1947

***

الحنين إلى الوطن من بين هذه الاحتياجات الأولية، التي يستحيل يومًا أن تدركها بصيرة الإنسان إذا كانت عضّة الجوعِ لا تقرص بطنه. على أنني لا أقصد بذلك الوطن كدولة، فلا شك

أن الوطن من الحاجات الرُّوحية السامية للإنسان، بل أقصد على وجه التحديد شعور الحنين إلى المزرعة البسيطة، وإلى بيت كلب الحراسة المطبوع في ذاكرة الجندي الفلّاح وهو في غربته على جبهة القتال، والصور التي يحتفظ بها المرء منا في ذاكرته كأفضل ما يُمكن أن تعيه الذاكرة. الحقيقة أن هذه الصور والذكريات ليست جميلة لأن الوطن جميل بالضرورة، بل جميلة لأننا لما رأيناها للمرة الأولى في حياتنا كنا قد رأيناها بأعين الطفولة التي تفيض بالامتنان والبراءة. وبمرور الأيام تصير الندبة الموشومة على ذقن الجدّة العجوز، والكوّة التي تتوسّط سور الحديقة في منزلنا القديم أجمل ما في الوجود. ليس هذا اندفاعًا وراء العواطف، على العكس تمامًا، فما دمنا لم نبلغ أرقى أطوار الحياة الروحية/الفكرية؛ يمسي الوطن أعلى درجات اليقين التي نملكها.

سَمِّ ما شئتَ تحت اسم الوطن، قد يكون الوطن منظرًا طبيعيًا، أو حديقةً، أو ورشةً عملتَ فيها يومًا، أو رنينَ جرس كنيسة في قريتك، أو رائحةً ما. قد يكون سِحرُ الوطن بالنسبة إلى أحدهم أن يعاود سماع صوت تدفُّق ماء النهر في الوادي أو صوت أنغام الأرغون داخل الكنيسة، بينما يمسّ شغاف قلب إنسان آخر أن تداعب أنفَه رائحةُ البطاطس المقلية المحمَّرة جيدًا بالطريقة التي كانت تعدّها له أمّه، مغموسة بقليل من البصل. لكن الأمر ليس في الكنيسة ولا في الطعام، بل في حلاوة اجترار ذكريات الصبا، في انطباعات أيامنا الأولى الراسخة في الذاكرة، وفي أيامنا الخوالي التي كانت مفعمة بالبركة. واعلم أن لكلٍ منا مفهومه الخاص عن الوطن. بالنسبة إلى

رجلٍ يعيش في الغربة مثلي، كلما زرت مسقط رأسي، رأيتُ عامل السكّك الحديدية في شفابِن كطائر من الفردوس، ناهيك بعادات المنطقة وتقاليدها. فلو وُلِدتَ في مدينةٍ واجهات بيوتها مقبَّبة الشكل كالجمالون، فسوف يخفق شعور الوطن في قلبك بشدة بمجرد أن ترى منزلًا مشابهًا يحمل التصميم نفسه، حتى دون رغبة منك، لأنه أمر يلامس أعماق قلوبنا، يلامس ذلك الكنز الصغير المدفون داخلنا منذ سنوات الصبا المبكّرة. تمتزج الصورٍ بالانطباعات التي قلّما نوفِّيها حقّها، لكننا ما إن نلمسها حتى تتشكّل أمامنا بلّورة صافية.

من رسالة إلى أرض المعركة، ديسمبر 1915

***

جميع الأطفال دونما استثناء، طالما أنهم ما يزالون في مرحلة السرّ، مشغولون بشيءٍ واحد فقط مهم، ألا وهو عالمهم الداخلي وفهم الرابطة الغامضة التي تربط ذواتهم بالعالم المحيط. وبينما يرجع الباحث والرجل الحكيم في سنوات نضجه إلى الانشغال بهذه المسألة، ينسى أغلب الناس مسألة الانشغال بالعالم الداخلي الحقيقي المهم ويهجرونها في فترةٍ مبكرة وإلى الأبد، فيضلّون طريقهم وسط جنون السعي المحموم نحو وسط دوامة الهموم والرغبات والأهداف، وهي الأشياء التي لا يسكن أيّ منها داخل عالمه الباطني، ولا يؤدي أيّ منها إلى عودته إلى أعماقه ولا إلى بيتـه.

من قصة إيرس، 1916

***

من الغريب أننا كثيرًا ما نفعل بالضبط عكس الأشياء التي رآها آباؤنا صحيحة، حتى أنا، الابن الضال، أفعل ذلك تمامًا ويبدو لي أن والدَيَّ عاشا في عالم ماديّ قوامه الحجارة والخشب، بينما عشتُ أنا في عالم مصنوع منَ الهواء والأوراق والأفكار، عالم من الأحلام، ومنذ ذلك الحين تبخَر الواقع كله.

من رسالة إلى إيمي بال – هيننيجنس، دون تاريخ

***

حينما كنا أطفالًا بذل الآخرون جهودًا شاقّة لكسر "الإرادة" في نفوسنا، أو مثلما أُطلق عليها علم التربية "زرع الورع" في نفوسنا آنذاك، والحقيقة أن هذا الأسلوب قد كسر فينا كل شيء، ودمّر بداخلنا كل شيءٍ إلا الإرادة نفسها، لم يستطع كسر ذلك الشيء الفريد الذي وُلد بداخلنا، ولا إخماد الشرارة التي صنعتْ منا أولئك الغرباء ذوي الشخصية المتفرّدة.

من الكتاب التذكاري إلى هانس، 1936

***

يواجه الشباب صعوبات جمّة، فهم مفعمون بالطاقة، لكنهم يصطدمون بالأعراف والتقاليد أينما ذهبوا، ولا أكره على الابن من مواجهة القواعد والتقاليد التي يرى أباه مغلولًا فيها.

من مقال التعبيرية في الشعر، 1918

***

لو افترضنا أن طفلًا موهوبًا بقي سنوات وراء سنوات، لنقلْ فترة الشباب كلها، عُرضة للاعتداء والضرب والترويع والترهيب، ثم جاء فارس نبيل وفكّ أسرَه، فلا ينبغي للفارس هنا أن يتوقع من الطفل أن يعرب عن رغبته في أن يكوا قاضيًا عادلًا مثلًا ولا أن يكون نافعًا، فلا يُستبعد أن يقدِمَ الطفل أولًا على إضرام النار في البيت أو افتعال خصومات أخرى.

من مراجعة بعنوان عن الأشياء القادمة، سبتمبر 1917

***

حينما تُشذب شجرة من الأعلى تنمو براعم جديدة بالقرب من جذورها، وهكذا أيضًا تعود الروح المُعتلة التي اعتورها المرض والعطب في أثناء فترة النمو إلى بدايات مرحلة الربيع المزهرة، وإلى حقبة الطفولة المفعمة بالمشاعر المرهفة، وكأنها اكتشفتْ هناك آمالًا جديدة، وأعادت ربط خيوط الحياة المقطوعة من جديد. ورغم نموّ براعم الجذور الجديدة بحيويةٍ وسرعة، إلا أن ذلك لا يعدو كونه مظهرًا حياتيًا وحسب، وهيهات أن تسفر عنه شجرة سليمة مثمرة.

تحت العجلة 1903

***

يتحتم على كل إنسان أن يخطو خطوة في حياته تفصله فصلًا تامًا عن أبيه وعن مُعلّميه، كما يتحتّم على كل إنسان أن يشعر بشيءٍ من قسوة الوحدة. أقول ذلك على الرغم من أن أغلب الناس عاجزون عن تحمّل ولو جزء ضئيل من الوحدة، وسرعان ما يعودون طالبين العون من أهلهم.

دميان 1917

***

لا ينبغي أن نأخذ الصراخ الثوري لطائفة من الشباب على محمل الجد، أمر واحد فقط علينا أن نأخذه بجدية؛ حاجتهم الملّحة إلى اهتمامات جديدة وانفعالات جديدة ووسائل تعبير جديدة.

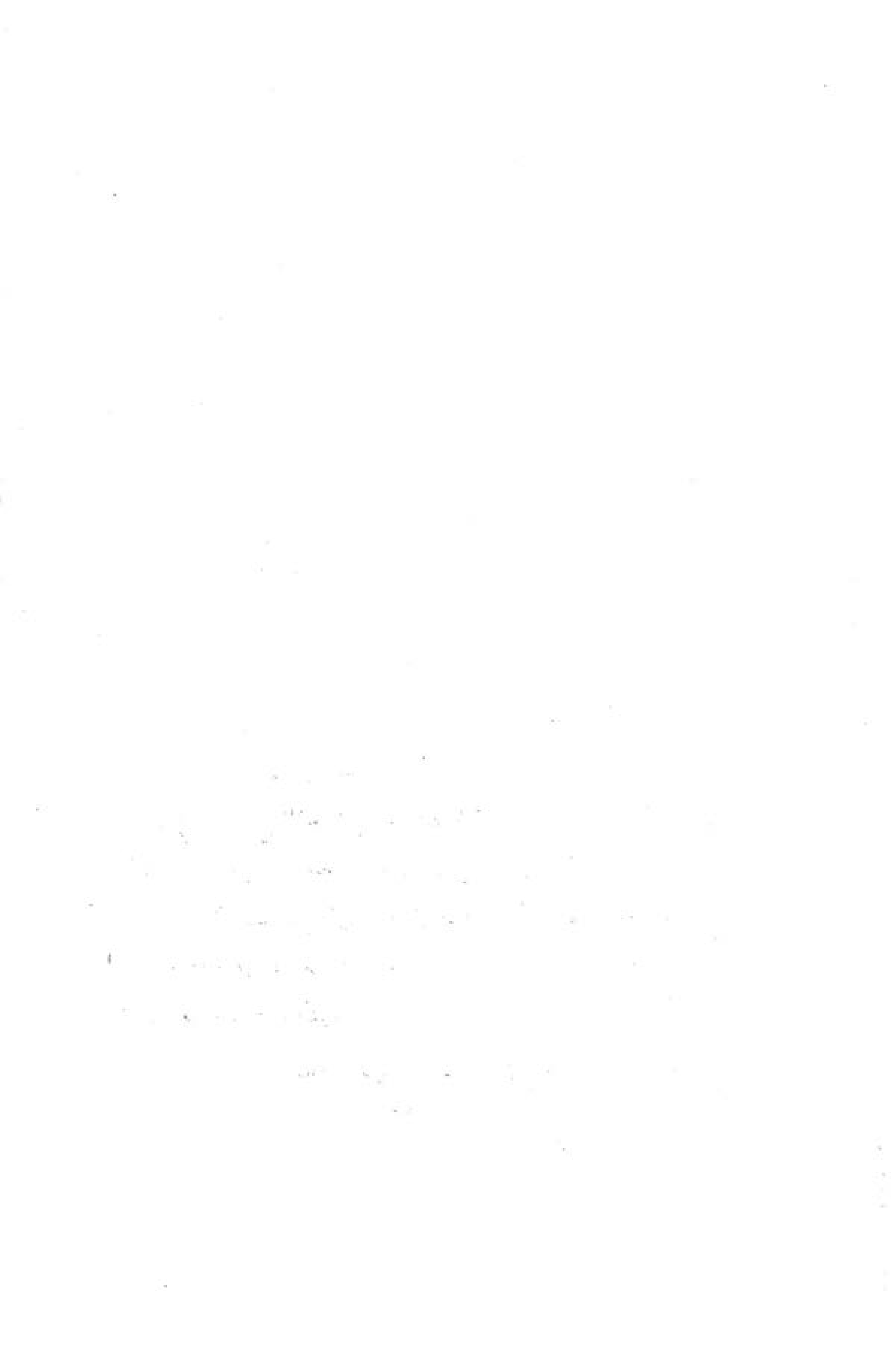
من رسالة إلى هيلينه فيلتي، مؤرخة في 7 يوليو 1919

***

لا وجود لحياة سامية من دون المرور بعملية التفرُّد ومن دون تحوُّل الشخصية، إلا أن عدوًا لدودًا يقف بالمرصاد في وجه هذه العملية التي تقتضي الإخلاص وحده، ألا وهو التقاليد البالية وفتور الهمّة ونمط الحياة البرجوازي. في ظني يجدر بالإنسان أن يصارع الشياطين والأبالسة من أن يرضخ لمعبودٍ كاذب اسمه العادات والتقاليد، هذه هي وجهة النظر الشابة التي أتبناها اليوم حينما يأتي الحديث عن صيرورة الفرد.

من رسالة إلى فريدريك فان إيدن، مؤرخة في 3 فبراير 1923

***



عن السعادة

السعادة هي الاستعداد للتخلي عن ذاتك للحظة، والتضحية بسنواتٍ طويلة من عمرك لأجل ابتسامة امرأة.

يستمدّ الجمال جانبًا من سحره من حقيقة أنا فانٍ.

السعادة هي الحب، ولا شيء سوى الحب، ومَن يقدر على الحب فهو سعيد.

تقتضي تجربة السعادة الانعتاق من الزمن، ومِن ثمّ التخلُّص من كل المخاوف والآمال، وهي قـدرة تتسرَّب من بين يد أغلب الناس كلما مرَّت عليهم السنوات.

كانت مادة سعادتي مصنوعة من الأحلام، وكان قوام سعادتي الحريّة في تخيُّل الشيء ونقيضه في آنٍ واحد، وتبديل الخارجي مكان الباطني، وإزاحة قيود الزمان والمكان مثلما تُزاح ستائر المسرح.

لا شكَّ أن أخطر أعداء السعادة هو المبالغةُ في تقدير قيمة الدقيقة والثانية، والنظر إلى السرعة كمحرك أساسي لأسلوب حياتنا، بمعنى أن ننجز أقصى ما في وسعنا وبأقصى سرعةٍ ممكنة، ولا يحصد المرء من وراء ذلك إلا متعة أكبر وسعادة أقل.

لن نحظى بالسعادة إلا حينما لا نطلب من الغد شيئًا، وحين نقرّ بالامتنان إلى ما جلبه لنا اليوم، فتأتينا من جديد ساعة الحظّ.

روح الإنسان مفعمة بالتوق إلى السعادة على الدوام، لكن مشكلة الإنسان أنه لا يطيق تحمُّل السعادة لفترة طويلة.

لم ندرك حقيقة الفردوس، وأنه فردوس إلا بعد أن طُردنا منه.

أجمل الأمور على الدوام أن تتزامن مشاعرُ الخوف أو الحزن مع مشاعر الفرح.

حين نرضى بالمكتوب يتحوَّل شقاؤنا إلى سعادة.

يتراءى لي أن روح الإنسان ستغدو ثريّة وسليمة وقادرة على الشعور بالسعادة في اللحظة التي يحدث فيها تدفّق وتبادل مستمرين بين أمواج الظلام الحالك ونقطة النور الصغيرة.

يكتم أغلبنا في صدره آلاف وآلاف الأشياء التي لا تظهر على السطح أبدًا، فتبقى هذه الأشياء راقدةً في الأعماق عرضةً للتعفُّن والشقاء، ولأنها تتعفّن وتشقى فإن العقل الواعي يلفظها دائمًا وأبدًا، فتختبئ تحت براثن الشكّ والخوف. أهذه هي غاية الأخلاق، ألا يظهر إلى السطح والنور ما نراه ضارًا؟!(1)

***

أروع ما في الفرحة أنها تأتي من دون استحقاق وأنها ليست سلعة تُشترى.

***

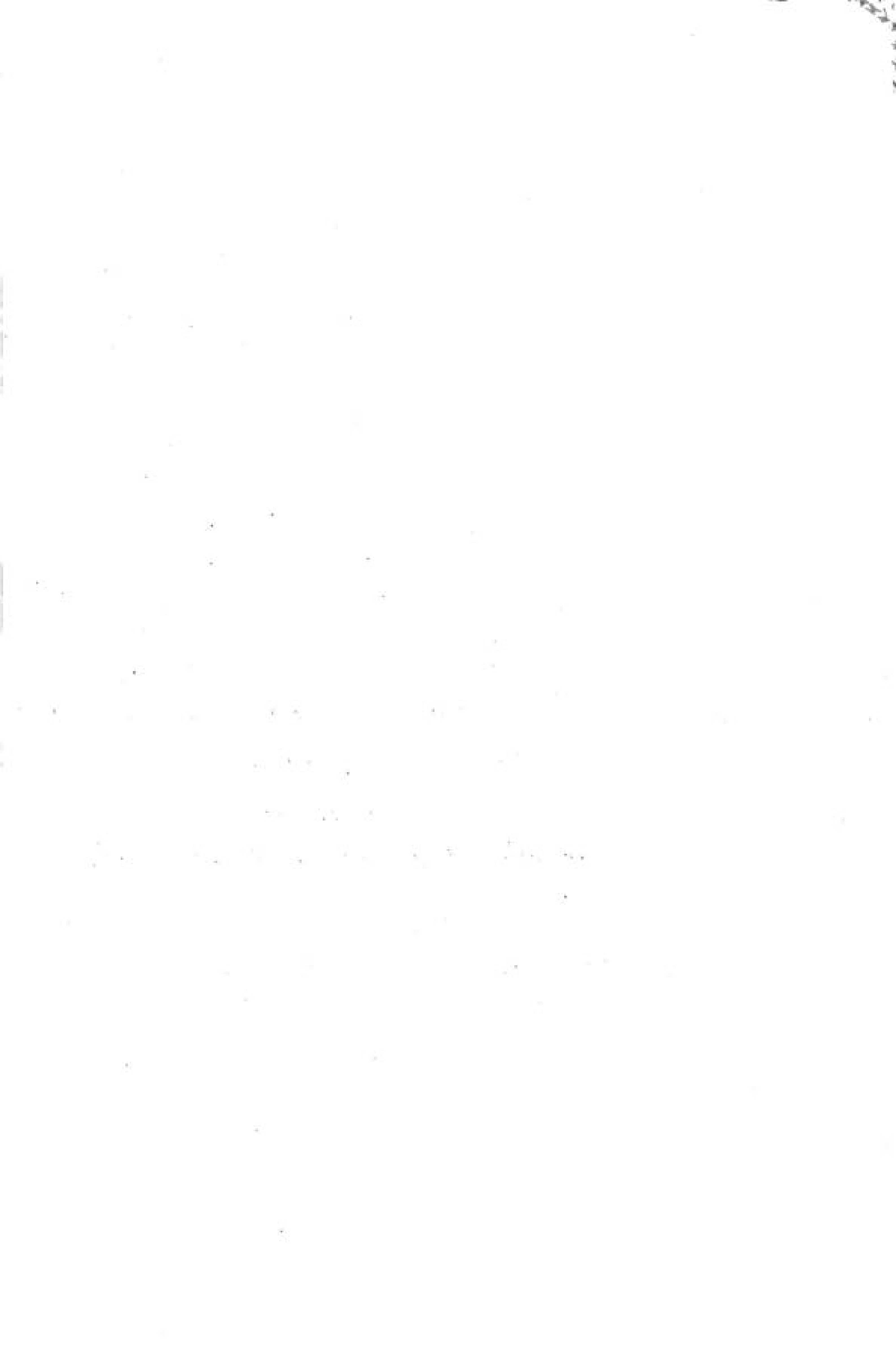
(1) يلمس القارئ هنا نبرة هسّه التهكمية الساخرة من قيود الأخلاق الموروثة (المترجم).

يتمتع الرجل الرحّال بأفضل أنواع الملذات لأنه يعلم أن ملذات الحياة إلى زوال، فهو من النوع الذي لا يبكي طويلًا على اللبن المسكوب ولا تستهويه رغبة في الاستقرار في كل بقعة تحلو في عينيه حين يمرُّ بها. فهناك من المسافرين من يرتحلون إلى البقعة نفسها كل سنة، ومنهم مَنْ لا يغادر منظرًا ساحرًا إلا وفي نيّته الرغبة في زيارته مجددًا. ربما يكون هؤلاء أناسًا ممتازين، لكنهم ليسوا رحّالة حقيقين، لأن في نفوسهم شيئًا من نشوة العاشقين ومن رغبة الحرص على جمع الأشياء مثل جامعة أوراق الزيزفون، لكنهم لا يتميّزون بحِسّ الرحالة، حسّ الهدوء، والفرحة الممزوجة بالجدية، والتعوّد على مفارقة الأشياء بصفةٍ دائمة.

في مقدورك دائمًا أن تلمس السعادة طالما كانت غائبة عن نظرك. ربما لا يكون التوق إلى السعادة وإلى خشونة العيش، والحياة بحماقة سبّة في جبين من يسعون إليها، فربما يحمل كل إنسان، بمقادير متفاوتة من الوعي، شيئًا من الحسد تجاه سعادة شخصٍ آخر يفوقه منزلةً أو يقلّ عنه، وربما يحسد كل إنسانٍ غيرَه، وربما يبدو قدر كل حياة أصعب من قدر ما سواها.

***

عندما يسقط شعاع الشمس من قلب سماء ملبدةٍ بالغيوم على زقاقٍ معتم، فلا يهم أيّ موضع أصاب، سواء أسقط على شظية زجاج فوق الأرض أو على ملصق ممزق على الجدار أو على رأس طفل أشقر، المهم أنه يجلب معه نورًا وسحرًا، والمهم أنه يُحوّل الأشياء ويُـجلّـيها.



عن الحـب

كلما ضعف إيماني بالعصر الذي نحيا فيه وزاد يقيني بتدهوره واندثاره؛ فـترت همّتي للوقوف في وجه هذا التدهور، وازداد إيماني بـالقدرة السحرية للحب.

***

يبدو لي أن المعرفة والحب وجهان لعملة واحدة، ويبدو لي أيضًا أن أكثر شخصٍ تحبّه هو أكثر شخصٍ تعرفه.

***

يـسود الشـرّ دائمًا حيثما لا يتراجع الحب.

***

أن تكون قادرًا على الحبّ.. يا له من خـلاص!

***

الخيال والقدرة على الإحساس بمشاعر الآخرين ليسا إلا وجهين من وجوه الحب.

***

علينا نحن الشباب أن ندافع عن أنفسنا كيلا نهلك. فليس في وسع القوانين ولا اللوائح وحدها أن تسدي إلينا عونًا، علينا أولًا أن نحبّ وأن نشعر بتوهّج أرواحنا، علينا ألا نسعى إلى السعي إلى تمزيق العالم نفسه، بل إلى تمزيق القيود التي طوّقنا بها أنفسنا.

***

سوف تملك بين يديك دائمًا كل ما يُمكن شراؤه بالمال، ولكن ستتعلّم أنَّ أفضل الأشياء وأجملها وأكثرها إثارة للرغبة لا تُشترى بالمال، فأفضل الأشياء في الحياة وأجملها وأكثرها رغبة إلى نفوسنا لا يُمكنك الحصول عليها إلا بروحك، فالمرء لا يقدر على شراء الحب، أما الإنسان ملوّث الروح، العاجز عن فعل الخير، بل العاجز حتى عن الإيمان بفعل الخير لن تؤثّر في روحه أسمى الأشياء ولا أنبلها، وستكفيه صورته الحقيرة الفاسدة الملطخة عن العالم، الصورة التي خلقتها أفكاره فتسببت في تعذيبه وإفقار روحه.

***

يعرف ويخبر كل إنسان جيدًا سهولة الوقوع في الحب، لكنه يعلم أيضًا صعوبة وعذوبة أن يُحب المرء حبًا حقيقيًا. الحب مثله كمثل كل القيم الحقيقية، الحب ليس سلعة تُشترى، المتعة تُشترى، لكن الحب لا يُشترى.

***

لا تكتسب الحياة معناها إلا عبر الحب. بكلماتٍ أخرى: كلما زادتْ قدرتنا على الحبّ والعطاء اكتسبتْ الحياة مغزى أعمق.

***

من الأسرار البسيطة واللافتة التي تعلّمُنا إياها حكمة الحياة عبر العصور، أن كل عطاء متجرّد من الغاية، وأن كل تعاطف نُبديه ناحية الآخرين، وكل عاطفة حب إنما تـزيد من ثراء قلوبنا، بينما كـل سعي محموم وراء ملكية أو سلطة يسلبُ قوّتنا ويزيدنا بؤسًا وشقاءً.

عرف الهنود هذه الحِكمة وتناقلوها، وعرفها من بعدهم حُكماء الإغريق، ومن بعدهم المسيح، ومن بعدهم آلاف الحكماء والشعراء الذين خلّد الزمان آثارهم على مر العصور، بينما زالت واندثرتْ الممالك والملوك أزمنتهم. في مقدوركم أن تواصلوا المسير في طريق المسيح أو في طريق أفلاطون أو شيللر أو سبينوزا، ستصادفون أينما ذهبتم حكمة أخيرة مفادها: لا المِلكية ولا السلطة ولا المعرفة بقادرين على جعلك سعيدً؛ وحده الحب.

صحيح أن كـل إنكارٍ للذات، كـل زهـدٍ بدافع الحـب، كل شفقةٍ فاعلة، وكـل تجرّدٍ من الذات، كل ذلك يبدو في الظاهر تـخـلّـيًا عما نملكه، إلا أنه في الحقيقة ثــراء وزيادة، وهو الطريق الوحيد إلى الأعلى والأسمى. هي أغنية موغلة في القدم، وأنا مغنّ رديء وواعظ خائب، إلا أن الحكمة الخالدة لا يعفّى عليها الزمان وتبقى حقيقية في كل أوان، سواء وعظ بها أحدهم في صحراءٍ جرداء أو شدى بها آخر في قصيدة أو طُبعت في جريدة.

***

عجيب هـو أمر الحب. الحـب مثله مثل الفن قادر على أن يأتي بما يعجز أن يأتي به التعليم أو الثقافة أو النقد، فالحب قادر على وصل البعيد ووضع الحقائق القديمة والجديدة جنبًا إلى جنب،

الحب قادر على تجاوز حدود الزمان بأن يجعل كل شيءٍ يدور حول مركزه هو، الحب وحده يهب الشعور بالأمان، الحب وحده على حقّ لأنه لا يسعى لأن يكون على حق، ولا يدَّعي أنه على حق.

***

مهما بلغ ارتباط الناس ببعضهم البعض تفصل بينهم على الدوام هـوّة شاسعة لا سبيل إلى ردمها إلا بالحب ولا إلى تجاوزها إلا عبر جسر طوارئ صغير، اسمه الصفح.

***

ثمة شيء أكثر ندرة وأشدّ صعوبة من تحقيق إنجاز أخلاقي أو فكري؛ أن تـجـد شخصيْن لا يستغني أحدهما عن الآخر ويعيشان في وئامٍ دائم.

***

حسن الخُلق أمر محمود، لكن لا قيمة له من دون الحب. الحب كل قدرة على السموّ، كل قدرة على الفهم، وكل قدرة على الابتسام وسط الألم.

***

لا يُمكن للإنسان أن يُحب شيئًا أكثر من حبِّه لنفسه، ولا أن يخشى شيئًا أكثر من خشيته نفسه. بالتزامن مع نشوء أساطير الإنسان البدائي وظهور دياناته، ظهر تحوّل غريب ونشأ نظام الزائف، حُرِّمَ بموجبه على الإنسان أن يحب نفسه، حيث حُرِّم عليه الحب الذي هو عماد الحياة، وأُجبر على كتم وإخفاء حبّه لنفسه ودفنها تحت

الأقنعة. فاعتُبـر أن حبَ الإنسان لغيـرِه شيء أفضل وأقوم وأسمى من حبّه لنفسه. ولما كان حبَ النفس هو غريزة الإنسان الأساسية المسيطرة التي لا يُمكن لحبّ الغيـر أن يزدهر إلى جوارها، فقد ابتكر الإنسان البدائي شكلًا مُـقنعًا، ساميًا وأخلاقيًا من أشكال حب النفس، فعثر على ضالته المنشودة في مفهوم الأسرة، القبيلة، القرية، الجماعة الدينية، الشعب والأمـة.

***

لقد أساء العالَم تفسير "وصية المحبة"، سواء أكان الوصية على لسان المسيح أم على لسان جوته. لم تكن في الأصل وصايا قط، ليس هناك وصايا، الوصايا إن هي إلا حقائق ضلّتْ طريقها، فأساس الحكمة هو أن تحقّق السعادة مشروطٌ بالحب. فلو قلتُ الآن: أحِبوا بعضكم بعضًا[1]، لكانت موعظة زائفة، والأصح أن أقول: أحبّوا أنفسكم وأحبّوا بعضكم بعضًا. يبدو أن الخطأ الأزلي أن يبدأ الإنسان بحبّ غيره أولًا، وأن ينسى حبّ نفسه.

***

وفق تقاليد الفكر الهندي، أقصد وفق تعاليم الأوبانشياد والفلسفة السابقة على البوذية، فإن الآخر ليس إنسانًا يشبهني، بل هو "أنا"، أنا والآخر كيان واحد، لأن التفرقة بين الآخر وبيني،

(1) يشير هسّه هنا إلى وصية العهد الجديد في الكتاب المقدس: "وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا(يوحنا: 34: 13) - (المترجم).

بين الأنا والأنتَ ليس إلا وهـمًا، مايا[1]، إلا أن هذا التفسير يُبدّد كل مغزى أخلاقي لحبّ الآخـرين. لأن مـن عرِف من البداية أن العالم وحدة كلية لا تتجزأ، لأدركَ بوضوح أنه من العبث أن تتسبَّبَ الأجزاء والأطراف في إيلام الوحدة الكلّيّة.

***

ليست السعادة في أن تكون محبوبًا، فكل إنسان يحُب نفسه، لـكن السعادة الحقّة هي أن تُحِبَّ.

***

رجل وقع في الحبّ ووجـد نفسَه، هنا يعثر على ضالّته، بينما أغلب الناس يقعون في الحب لـيضيّعوا أنفسهم ويضلّون.

***

لا وجود للحـب من دون شخصيةٍ قوية، أقصد لا وجود لحبٍ حقيقيٍّ عميق من دون شخصيةٍ قـوية.

***

لا ينبغي للحـب أن يسأل شيئًا ولا أن يطلب شيئًا. على الحب أن يمتلك القـوة الكافية لبلوغ اليقـين بنفسه، فلا يكون الحـب هـو التابع، بل المتبوع.

***

(1) مايا: هي الوهم أو سحر الوهم، ولها معانٍ أخرى في الفلسفات الهندوسية والبوذية بحسب السياق (المترجم).

علينا أن نُبقي على حبنا حرًا طليقًا كيلا نفقد القدرة على منحهِ إلى الآخرين في كل وقتٍ وحين. غلطتنا أننا نبالغ دومًا في تقدير قيمة الأشياء التي نمنَحها حُبَّـنا، وهو ما يجرُّ علينا آلامًا كثيرة.

***

أنا عاشـق للخيانة، عاشـق للتبـدّل والخيال الحـرّ. لا أؤمـن البتّة بحصر مشاعر الحب عندي في بقعةٍ بعينها، ودائمًا ما أنظر إلى الأشياء التي أُحبّها على أنها مجرد حكاية مجازية، أما ما يلتصق بحُبنا ويتحول إلى ولاء وفضيلة، فأضعه دومًا موضع شكٍ وريبة.

***

صحيح أن كبار الفنّانين والشعراء عشّاق ذوو عاطفة مشبوبة، إلا أنهم أزواج خائبون، فالفنان الحقيقي يُكرّس حياته لأجل عملهِ وحده، لأنه لم يعد يمتلك فائضًا من الحب، بل نقصًا منه بعد أن استهلك عكوفه على عمله الفني الجزء الأكبر من طاقته.

***

في أغلب الأحيان يكون الزواج بالنسبة إلى الفنان أو إلى الإنسان ذي الخيال الخصب أمرًا مُخيّبًا للآمال، أو في أحسن الأحوال يعيش المرء حياةً زوجيةً رتيبة، لكنها قابلة للاحتمال، فيتواءم معها مع مرور الأيام، لكن شيئًا من روح الإنسان وحيويّته يـموت من دون الشعور بالألم، ومِن دون الألم تجدب الروح، في حين أنها تزداد خصوبةً بـعد تجربة ألمٍ مريرة نبيلة.

***

لا يتزوج الإنسان لينجب أطفالًا فقط، لكنه لو رُزق أطفالًا، فسوف يُغيّرونه ليدرك في نهاية المطاف أن كل شيءٍ قد وُجِدَ لأجل سعادتهم فقط.

***

وما معنى العقل والرصانة لو لم يذق الإنسان طعم الجموح والتمرّد؟ وما معنى المتعة الحسّية لو لم يعرف الإنسان أن من ورائها الموت؟ وما معنى الحب لو لم يعرف الإنسان العداوة الضارية بين الذكر والأنثى؟

***

عن اللغة والـشعر

ما دامت عجلة الحياة دائرة فلن يـكفَّ البشر عن أن يقصُّوا على بعضهم ما رأَوه في حياتهم وما علق بذاكرتهم من تلك التجارب، وسيظهـر من بينهم من تتحول على يديه تجارب الحياة المُعاشة إلى صيــغ و رموز تُعبّر عن قوانين الكون الأزلية، في هيئة كلماتٍ ترى السرمَدي في الزائـل، والإلهي والكُلّي في المتحوّل والعشوائي. ولا يهمني إذا ما أطلق الشعراء على أعمالهم وصف روايات أو نبوءات أو حكايات روحية. لم تتمكّن لـغة بشرية قط من الوصول إلى درجة الحيوية وخـفّة الظل والبريق والروح التي تصرف بها قطّة وقتها في لـفّ ذيلها، ولا طائر الجنة وهو يلفّ ثوب زفافه في غبار النهار الفضيَ. إلا أن الإنسان في مقدوره أن يفوق كافة القطط والحيوانات والنباتات، إذ هو احتفظَ بذاته الأصيلة ولم ينشد تقليد أسراب النمل أو النحل.

ابتكرَ الإنسان لـغات قادرة على التعبير تعبيرًا أفضل من اللغة الألمانية أو اليونانية أو الإيطالية وتثير صـدى، حيث تفتّق عن خياله ظهور الأديان، وفن العمارة، وفنون الرسم، والمذاهب الفلسفية، كما ابتكر الموسيقى التي تتجاوز ألعابها التعبيرية وثراءها بحيوية طيور الجنة والفراشات. ليست اللغة الناصعة الأصيلة هـدفًا في حد ذاته لو لم تُعبّر عن تجارب الإنسان الحقيقية.

لذلك نجد أن اللغة المحلية المُحمّلة بتجارب العهود الغابرة، والمتجاوزة لما هو شخصي، تنضح على الدوام بعذوبةٍ فائقة، ومن ثمَّ فإن عدم إلمام المواطن الألماني متوسط الثقافة بلغتِه إلمامًا جيدًا لا يعني قصورًا من جانبه في إتقان اللغة، بل يعني قصورًا في أعماق ذاته، وعجزًا عن أن يعيش تجارب الحياة بقوةٍ وصدق.

عن الكتب

بالنسبة إلى القارئ الواعي تعني قراءة كتاب التعرّف إلى جوهر إنسان غريب وطريقة تفكيره، ومحاولة فهمه واكتسابه كصديق قدر ما وسعه. ليست وظيفة الكُتب مساعدة البائسين على توفير حياةٍ بديلة، بل العكس تمامًا، فلا قيمة للكتب إن لم تأخذ بيد قارئها نحو الحياة، وإن لم تكن في خدمة الحياة، وساعة القراءة هي ساعة ضائعة مهدورة، إذا لم تمنح قارئها دَفعةً من القوة لمواصلة الحياة، وشعورًا بالتجدد، ونفحةً من الطاقة. وكلما تنوّعتْ قراءاتنا وازدادتْ رهافةً وثراءً، رأينا بوضوح خصوصية كل فكرة وقصيدة، ورأينا فرادتها والشَرط الإنساني المَخصوص، وعرفنا أن جمال كل فكرة أو قصيدة وروعتها راجعة إلى هذه الخصوصية والفرادة، وأدركنا بشكلٍ أوضح أن مئات الآلاف من أصوات الشعوب تنشد غايةً واحدة، وتبتهل إلى إلهٍ واحد وإن تعددت الأسماء، وأنها تؤمل في الأمنيات نفسها وتكابد آلامًا واحدة. من وسط شبكة تضمّ آلاف الخيوط من اللغات والكتب التي تجلّ عن الحصر وتضرب بجذورها آلاف السنين إلى الوراء، تومض أمام عين القارئ، وفي لحظة استنارة بعينها، لحظة خيالٍ سامٍ وخارق: وجه إنسان شكّله الخيال من بين آلاف قطع الفسيفساءَ المتناقضة. يحسَبُ كثير من الناس أن عدم الاطلاع على أحدث أعمال الكُتاب المعاصرين وصمة عار في حقهم، بينما

ينصرفون في الوقت ذاته عن قراءة الأعمال الكلاسيكية، من دون معرفة أن جانبًا كبيرًا من الأدب المعاصر ما هو إلا عـزف على لحن القديم، وما هو إلا أدب قديم معروض في حُلة جديدة.

***

نحن نستقبل من المؤثرات الخارجية ما هو منسجم مع طبيعتنا وما نحن مستعدون له وما فرضته علينا أقدارنا، لذلك ترانا نتأثر اليوم تأثرًا قويًا بالأشعار والنصوص التي سبق وأن أعرضنا عنها بالأمس، وطالما رأيتُ مع القُرّاء أشياءً في غاية الغرابة، فكثير من القُراء يحبّون لفترة من الزمن أديبًا بعينه ويحتاجون إليه، بل ويكتب بعضهم إليه بين الحين والآخر. وبالمثل رأيتُ بعض الشباب الذين دأبوا على الكتابة إليّ بمشاعر حبٍّ جارفة، ينصرفون عني دون سابق إنذار بمجرد انتقالهم إلى طورٍ جديد من أطوار الحياة، لأنهم يكتشفون بغتةً ألوانًا جديدة من الحكمة، بل ينظرون بعين الشفقة إلى الأديب الذي كان حتى عهدٍ قريب رفيق درب وناصح أمين ومرآة نفس القارئ، بل إن بعضهم يحسّ بحاجةٍ إلى أن يُخبرني برأيه، مبررًا لنفسه سبب إعراضه عني.

ورغم ذلك، يحدث في أحوال نادرة أن يعيد القارئ نفسه الذي سبق وأن أعرض عني -بعد مرور سنوات طويلة- اكتشافي، وأن يعاود الكتابة إليّ، وأن يستأنف التواصل معي مُجددًا.

***

من يُسلم نفسه تسليمًا أعمى إلى كاتبٍ أو مؤلفٍ أو حِكمة، مُذعنًا إلى رأي بلا تدبّر، مُحاكيًا مصير بطل القصص الخيالية بدلًا من التماس الدعم والعون، وهو يتلمّس طريقه الخاصّ في الحياة، فلن يُجدي معه نفعًا قراءة كتاب أو مؤلف حتى يصير نفسه.

القراءة الطائشة غير المنظّمة أشبه بالخروج للنزهة في ربوع الطبيعة بعينيْن معصوبتيْن. لا ينبغي لنا أن نقرأ لكي ننسى حياتنا اليومية، بل العكس؛ علينا أن نقرأ من أجل أن نملك زمام حياتنا بشكلٍ أكثر وعيًا ونضجًا، علينا ألا نُقبِل على قراءة الكتب مثل تلامذةٍ خائفين مُقبلين على مُدرّسين مُمِلّين، أو مثل شخصٍ لا يعاقر الخمور يمسك بزجاجة خمر ويجرع منها، بل علينا الإقبال عليها بشجاعةٍ مثل متسلقي جبال الألب أو مثل مقاتلين مُقبلين على ترسانة أسلحة، لا كهاربين أو كارهين لعيش الحياة.

أعداء الكُتب الحقيقين وأعداء الذوق السليم ليسوا مُحتقري الكتب، بل المتبحّرين في القراءة دون وعي، فرُبّ زوجة بسيطة لا تعرف من الكتب سوى الكتاب المقدس، استطاعت أن تستمدّ منه معرفةً وسلوانًا وفرحة أكثر مما يستطيع ثـري مُدلل أن يستمدّها من مكتبته الضخمة.

ورُب قارئ واحد حقيقي واعٍ خير من ألف قارئ سطحي مبتذل، لذلك ترى أن حملات وانتصاراتٍ وفتوحات الطُغاة والفاتحين أقلَّ صمودًا في وجه الزمن، لإنها محسوبة بمنطق الكمّ وحده ومُحققة بمنطق الكمّ وحده. أعرف إنني حينما أتيه داخل صفحات كتاب جميل، فإني أصنع أفضل وأذكى وأقيم مما أنجزه ملوك الأرض

ووزراءهم منذ سنوات، لأنني أشيِّدُ حيث يدمِّرون، وأجمع حيث يفرِّقون، وأعايش الله حيث أنكروه.

مع كل كتابٍ نقرؤه تضطرب بوصلة حياتنا، حيث تعرضُ لنا روح كل مؤلف إلى أي مدى يُمكننا النظر إلى العالم من وجهات نظرٍ متباينة، ثم ما تلبث أن تسكن الاضطرابات وتعود إبرة البوصلة إلى وجهتها القديمة الملائمة لجوهر كل واحدٍ منا.

هكذا كان الأمر معي حين أستريح من القراءة. صحيح أن الإنسان يستطيع قراءة الكثير، بل ويستطيع عاشق الكتب الذي يعيش على حافة الحياة أن يقتات على الكتب والآراء مثلما يقتات الإنسان الاجتماعي على الانخراط وسط الناس، لكني أتساءلُ في أغلب الوقت: كم يُمكننا تُحمّل من هؤلاء؟

في لحظةٍ بعينها يتحتم عليك أن تلقي بكل الكتب جانبًا، وأن تخرج في نـزهةٍ إلى الخلاء بمفردك قليلًا، مستشعرًا جمال الطقس، الزهور، الضباب والرياح، باحثًا في أعماقك عن البقعة الساكنة التي يصير عندها العالم المشتت وحدةً شاملة. من واقع خبرتي الشخصية لا توجد وسيلة لتزجية أوقات الفراغ أفضل من الامتناع لفترة ما عن قراءة سطرٍ واحد، وبعدها ليس ثمة أفضل من خيانة هذا القرار والانغماس في قراءة كتاب ممتع حتى تغرق فيه بكل حواسّك.

المحتويات

فنُّ الكسل

لطالما احتاج الفنانون إلى شيءٍ من الكسل؛ يعود جزء من ذلك إلى حاجتهم إلى فهم التجارب التي اكتسبوها حديثًا وتمثّلها، وإعطاء الفرصة للأفكار التي أفرزها اللاوعي لكي تنضج، بينما يعود جزء آخر إلى تكريس الفنانين أنفسهم تكريسًا لاواعيًا لفكرة أن يعودوا أطفالاً مرةً أخرى، أن يكونوا أصدقاءَ وأشقاءَ الأرض والنباتات والصخور والسُحب. وسيّان إن كنتَ ترسم لوحاتٍ أو تصوغ قصائد، أو إن كنتَ تكتب الأدب أو تقرض الشعر ابتغاء المتعة الفنية وحدها، فلا بُدَّ من وجود فترات من الراحة التي لا غنى عنها لأيّ فنان.

من قلب فترات الحبسة (الإبداعية) تنشأ أوقات الخمول الاضطرارية، التي طالما قوبِلَت بالازدراء أو الشفقة من ذوي الروح "البانوسية"، من محدودي الأفق.

بل حتى الفنان نفسه دائمًا ما يُباغَتْ ويُخدع بأوقات الحُبسة هاته، ويسقط فريسة ضيق الصدر وتعذيب الذات، ويستمرّ به الحال هكذا حتى يتعلّم كيف يُذعن لصوت قوانينه الفطرية الداخلية، وحتى تواسيه فكرة أن الوفرة تشلُّ الإبداع مثلما يشلّه الإرهاق.

هيرمان هسه





الترقيم الدولي: ISBN 978-1-998800-05-6
978-1-998800-05-6